الحراك الحواري

في القرآن الكريم

وأبعاده العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية

د. تيسير محجوب الفتياني



الحراك الحواري



227
الفتياني، تيسير
الحراك الحواري في القرآن الكريم وأبعاده العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية/ تيسير محجوب الفتياني - عمان: بيت الأفكار الدولية، 2005.
(304) صفحة
ر.إ: (2005/8/2064).
الواصفات: / القرآن/ / الإعجاز/

ISBN 995721262-1

بيت الأفكار الدولية

الأردن

P.O.Box 927435 Amman 11190 Jordan
Tel +962 6 533 8851 Fax +962 6 533 0928

السعودية

P.O.Box 220705 Riyadh 11311 K.S.A
Tel +966 1 484 2555 Fax +966 1 483 4238

WWW

www.afkar.ws
e-mail: ideashome@afkar.ws

المؤتمن للتوزيع

السعودية

P.O.Box 69786 Riyadh 11557 K.S.A

الرياض
+966 1 243 5423 Fax +966 1 243 5421

مكة المكرمة	02 5742532
جدة	02 6873547
المدينة المنورة	04 8344366
الدمام	03 8264282
القصيم	06 3260360
أبها	07 2296615

الحراك الحواري

في القرآن الكريم

وأبعاده العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية

د. تيسير محجوب الفتياني





المقدمة

بعد أن تعرفنا في الكتاب الأول من سلسلة "الحوار" والذي يحمل عنوان "كيف نحاور الآخرين؟" إلى مجموعة من المباحث والمطالب، وتناولناها بشيء من الشرح والتفصيل وهي: نشأة الحوار، والتعريف به: لغة واصطلاحًا وصريح لفظ الحوار وألفاظ ذات صلة بالحوار، وأدب الحوار.

ها نحن نواصل رحلتنا في رحاب هذه السلسلة لنصل إلى الكتاب الثاني والذي هو توسع وامتداد لعنصر" أدب الحوار" اخترنا له عنوان **"الحراك الحواري في القرآن الكريم وأبعاده العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية"** وذلك من خلال الحوار في قصص الأنبياء عليهم السلام التي أتحفنا بها كتاب الله عز وجل معززة بسنة نبيه محمدﷺ لنبين للعالم كافة أن ما يزعمه مفكرو الغرب وساستهم بأنهم رواد "حقوق الإنسان" و"الديمقراطية" و "حقوق المرأة" و "حرية التعبير" و"حل المشاكل بالحوار" و"...." وأن كل ما ذكر آنفًا هو نتاج حضارتهم ومحصلة أفكارهم وفلسفتهم هو مجرد وهم وافتراء وادعاء باطل؛ فقد كانت الحضارة الإسلامية هي السباقة في كل هذه الميادين وغيرها وكان رائدها كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم منذ مئات السنين.

وها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم ما يثبت صحة ما ذهبنا إليه ليكون عونًا له وسندًا في معرفة حقيقة ما يثار من قضايا بين آونة وأخرى، وليكون مَعينًا ومنهلاً لإثراء ثقافته وتنقيحها مما علق فيها من شوائب، وحصنًا منيعًا ضد التيارات المعاصرة المغرضة، دون أن ننحرف عن مبدئنا وغرضنا الأساسي من

وراء هذه السلسلة وهو إبراز أهمية الحوار وأنه ضرورة ملحّة لكل مسلم ومسلمة ولكل الساسة حتى يعرفوا كيف يواجهون ما يعترض الأمة الإسلامية من قضايا وأزمات ويتوصلوا إلى إبراز الحقيقة دون تعصب أو غضب أو اللجوء إلى وسائل أخرى غير مجدية، ولا هدف لنا من وراء ذلك سوى أن نلقى الله -سبحانه وتعالى - بعمل نرجو أن يكون صالحًا ويلقى القبول في ميزان حسناتنا، إنه نعم المولى ونعم النصير....

وقد ارتأيت -تعميمًا للفائدة، وتسهيلاً للقارئ العزيز - أن أقسم الموضوع إلى أربعة فصول، يتفرع كل فصل منها إلى أربعة مباحث.

الفصل الأول: الحوار العقدي في قصص الأنبياء.

الفصل الثاني: الحوار الأخلاقي في قصص الأنبياء.

الفصل الثالث: الحوار الاجتماعي في قصص الأنبياء.

الفصل الرابع: الحوار السياسي في قصص الأنبياء.

****

****

الفصل الأول

الحوار في العقيدة

تمهيد

المبحث الأول: حوار نوح (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثاني: حوار هود (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثالث: حوار صالح (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الرابع: حوارات إبراهيم (عليه السلام)

الفصل الأول

الحوار في العقيدة

تمهيد

الناظر في مادة ع – ق – د يجد أن العقد معناه الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة لعقد الحبل وعقد البناء ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرها فيقال عاقدته وعقدته وتعاقدنا وعقدت يمينه، ومنه قيل لفلان عقيدة [1]، والذي صرح به أئمة الاشتقاق أن أصل العقد نقيض الحل، ثم استعمل في أنواع العقد من البيوعات وغيرها ثم استعمل في التصميم والاعتقاد [2].

فالعقيدة ما انعقد عليه القلب وصدق واستمسك به وتعذر تحويله عنه، لا فرق في ذلك بين ما كان راجعًا إلى تقليد أو وهم أو إلى دليل عقلي، فأساس التسمية في اللغة تمسك القلب بالمعتقد من غير نظر إلى منشأ العقيدة.

ويعرف بعض العلماء العقيدة بأنها: "إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يكره الإنسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل" [3] وبناء على هذا التعريف نجد أنه يعتبر العقيدة قضايا لا شعورية مفروضة على الإنسان ولا دليل عليها، وأنها قد تطابق الواقع وقد لا تطابقه.

وقد ميز صاحب هذا التعريف بين العقيدة بهذا المفهوم وبين المعرفة فالأولى عنده إلهام لا شعوري يصدر عن أسباب خارجية وعن غير إرادة الإنسان، بينما

---

١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني /٣٤١.

٢) لسان العرب ٢/٢٩٦ و٢٩٧، تاج العروس ٢/٤٢٧، ٤٢٨.

٣) الآراء والمعتقدات، غوستاف لوبون / ٧ و٨.

المعرفة علم يحصل بفعل التفكير العقلي المتزن. ويذهب إلى أنه يحدث أن تنشأ العقيدة في النفس دون دليل ثم يحاول الإنسان إيجاد ما يبررها عقليًا[1] وإذا كان هذا الكلام ينطبق على بعض العقائد فإنه لا ينطبق على العقيدة في الإسلام لأن العقيدة في الإسلام هي مجموعة الحقائق التي انعقد عليها قلب الإنسان وجزم بصحتها وقطع بثبوتها وآمن بها عن طريق العقل والسمع والفطرة إيمانًا لا يرقى إليه شك ولا تزعزعه شبهة.

وقد عرفها علماء الإسلام: هي الإيمان المطابق للواقع الثابت بالدليل.

فالإيمان هو التصديق الجازم وبه يخرج الشك والوهم والظن، والشك هو التردد في معرفة الشيء بين الإثبات والنفي من غير ترجيح لأحد الطرفين، والوهم هو إدراك الاحتمال المرجوح، والظن هو إدراك الاحتمال الراجح والمطابق للواقع يخرج الجهل المركب وهو الإيمان بنقيض الحقيقة، والثابت بالدليل فصل ثان يخرج التقليد الصحيح وهو الأخذ بالقول الصحيح من غير معرفة دليله[2].

وبهذا تختلف العقيدة الإسلامية الصحيحة عن العقائد الأخرى التي لا تطابق الواقع وينقصها الدليل، إذ هي عقيدة أثبتت البراهين صحتها ومطابقتها لمسلمات العقول ونوازع الفطرة السليمة.

فالعقيدة هي الركيزة الأولى في دعائم الفكر الإسلامي، فأي فكر صحيح يجب أن يأخذ في اعتباره الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وإذا تمكنت العقيدة في نفوس الأمة فإنها ستكون المعيار الذي يحتكم إليه في

---

١) الآراء والمعتقدات (مرجع سابق) ٧ و ٨.

٢) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها، أمين المصري /٩٢.

تفكيرها وفي نظرتها إلى الأمور باعتبار أنها دين من عند الله وليست نظامًا من صنع البشر وبهذا يكون الفكر منضبطًا بضوابط العقيدة التي تدين بها الأمة فلا ترخي العنان لنفسها في اتجاهاتها الفكرية أيًا كان نوعها.

إن الخير والشر حقيقتان في هذه الحياة والصراع بينهما قائم منذ وجد الإنسان ولا بد لاستقرار الحياة من دفع الشر ومحاربته حتى لا تستحيل الحياة إلى موت، والإيمان هو أقوى سلاح لنصرة الحق والقضاء على الباطل وهو الذي جعل أصحاب الإرادات الإيمانية من الأنبياء والرسل يقفون في وجه الجبابرة ثابتين صامدين، لا تغريهم متع ولا يصرفهم عن نصرة الحق صارف، وعن طريق الحوار استطاع الأنبياء والرسل أن يحولوا عابد الوثن وشارب الخمر إلى مؤمن بالله كريم النفس قوي الخلق، طاهر السريرة ثائرًا على الرذيلة[1].

ولتوضيح هذه الفكرة وبيانها تم تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: حوار نوح (عليه السلام) وجدل قومه.

المبحث الثاني: حوار هود (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثالث: حوار صالح (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الرابع: حوارات إبراهيم (عليه السلام).

****

١) الدعوة إلى الله تعالى، أبو المجد نوفل/٦٨.



الحوار في العقيدة

حوار نوح [عليه السلام] وجدل قومه

المبحث الأول

حوار نوح (عليه السلام) وجدل قومه

ذكر سيدنا نوح عليه السلام في ست عشرة سورة من سور القرآن الكريم وكان الحوار في ست منها. والحوار في العقيدة كان في سورة الأعراف، وأطراف الحوار نوح عليه السلام وقومه، وهدف الحوار تصوير طبيعة العقيدة، وطريقة التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها، فماذا طلب نوح من قومه؟ وبماذا دعاهم؟ طلب منهم عقيدة صحيحة لأنها أساس الكمال، ودعاهم إلى عبادة الله وحده.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف/٥٩].

فالحوار يجب أن يكون بلسان القوم المحاورين والأفضل أن يكون المحاور منهم تأليفًا لقلوبهم وتيسيرًا لهم في التفاهم والتعارف وأن يخاطبهم بموجز العبارات التي لا تحتمل تأويلاً ولا تحويلاً ولا تبديلاً.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف/٥٩].

فالهدف من المحاورة هو عبادة الله وحده وهي عماد الحياة الإنسانية وسبب تحررها من الهوى والعبودية لأمثالهم من البشر، واستمر الحوار في لغة فيها إشفاق ولهجة فيها نصح أخوي فقال:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف/٥٩].

فهو عليه السلام يخاف على قومه ما ينتظرهم من عذاب إن كذبوا وهذا أدعى لقبول ما جاء به المحاور إذ يجب أن يبين للمحاورين أنه حريص عليهم ويريد

مصلحتهم وليس له غرض شخصي إلا أن المنحرفين الضالين من قومه استقبلوا هذا الحوار الهادئ بالعنت والتهجم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ[1] مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف/٦٠].

فهم قد قلبوا الموازين وأبطلوا الضوابط وحكموا الهوى وجعلوا من يدعوهم إلى الهدى ضالاً، إلا أن نوحًا عليه السلام وعن طريق الحوار ينفي عن نفسه الضلال ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين ناصح لهم وأمين وأنه يعلم من الله ما لا يعلمون.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف/٦١-٦٢].

وفي رده عليه السلام يبدأ من نقطة اتفاق بينه وبينهم بإضافتهم إليه استمالة لقلوبهم نحو الحق، فقال: يا قوم ليس بي ضلالة، فبالغ في النفي لأنه يجب أن يكون واثقًا بنفسه – بل ليس بي شيء من أفراد الضلال وجزئياته فضلاً أن يكون بي ضلال عظيم بين ولكني على هدى كامل في الغاية لأني رسول من رب العالمين أعلم من قدرته القاهرة وبطشه الشديد على أعدائه ما لا تعلمون(٢) وبحوار رقيق ناداهم يا قوم فهو واحد منهم يهمه ما يهمهم ويريد صلاح أمورهم فهو ناصح أمين أخلص النية لهم عن شوائب الفساد وزاده الله عنهم بالعلم.

---

١) الملأ: أشراف القوم ورؤساؤهم لأنهم يملأون صدور المحافل بجلالهم وهيبتهم، والأبصار بجمالهم وبهجتهم (تنوير الأذهان ٥٤٦/١) وقيل الرجال ليس معهم نساء (الكشاف ٨٥/٢).

٢) تنوير الأذهان ٥٤٧/١.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف/٦٣].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح[1].

فهو يقول لهم: استبعدتم وعجبتم أو كذبتم وأنكرتم الوحي والموعظة على لسان رجل منكم تعرفونه منذ نشأ لا ضالاً ولا كذابًا لأجل ينذركم به فهو يريد أن يحرك قلوبهم بمشاعر التقوى ليظفروا في النهاية برحمة الله فلا مصلحة له ولا هدف إلا هذا الهدف السامي النبيل.

والموضع الثاني لحوار نوح عليه السلام جاء في سورة يونس عليه السلام وأطراف المحاورة سيدنا نوح عليه السلام وقومه والهدف منها إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده، ونجاة الرسول ومن معه وهلاك المكذبين.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس/٧١].

أي أخبر يا محمد، واقصص على كفار مكة خبر نوح مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر المكذبين أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك[2]، وهو حوار شديد وقوي

١) الكشاف: ٨٦/٢.

٢) مختصر ابن كثير ٢٠١/٢.

ولكنه لم يصل إلى دائرة الجدل لأنه حق ولا يريد إحقاق باطل، فتحداهم قائلاً: إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم، وكبر عليكم تذكيري لكم بآيات الله التكوينية التنزيلية فإني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديمًا وحديثًا[1]، فتدبروا مصادر أمركم وموارده وليكن الموقف واضحًا في نفوسكم، وما تعتزمونه مقررًا لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد ولا رجعة، ثم أحكموا ذلك الأمر ثم لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم أو امضوا إليّ ولا تؤخرون، وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه[2]، وهذا دأب الداعية الصادق في حواره، ثقة بالله وعدم طلب مطمع دنيوي، ولا غرض خسيس، وإنما ثواب نصحه في الحوار على الله سبحانه، فهو الذي يثيبه على حواره وتذكيره، سواء آمن المحاوَر أو تولى، إنه الإيمان بالله وحده، الذي يصل المحاور بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه فليس هذا التحدي غرورًا، وليس تهورًا أو انتحارًا إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان، والمحاور في دعوته إلى الله وإعلامه بدينه له أسوة حسنة في رسل الله، فيجب أن يمتلئ قلبه ثقة بالله حتى تفيض ويجب أن يتوكل على الله وحده في وجه الطواغيت أيًا كانوا لأنه لن يضره الطاغوت، وسينجو كما نجى الله نوحًا ومن معه، وهذه سنة الله في الأرض ووعد الله لأوليائه.

---

1) فتح القدير ٢/٤٦٢.

2) فتح القدير ٢/٤٦٢.

والموضع الثالث لحوار نوح عليه السلام ورد في سورة هود وهو هنا أكثر تفصيلاً فهو يبين بشكل واضح حوار نوح وجدل قومه، فأطراف الحوار في هذه الآيات الحق جل وعلا ونوح وقومه، وموضوع المحاورة هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ومناقشتهم والرد عليهم في الشبهة التي طرحوها ثم هلاكهم ونجاة نوح ومن آمن معه واستشفاع نوح لابنه.

فشا في قوم نوح الشرك فبعث الله إليهم نوحًا يدعوهم إلى التوحيد ويبلغهم رسالة ربهم، فحاورهم بلطف ولين ولكنهم قابلوه بالصد والإعراض واتهموه وافتروا عليه وأكثروا من الجدل لإبطال الحق وإحقاق الباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود/٢٥-٢٦].

بدأ محاورته عليه السلام في رقة وأثار فيهم أنه شاعر بهم لشدة حرصه على هدايتهم ولكن تصدى له الملأ:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود/٢٧].

ولكن قومه كانوا في منتهى الغلظة وخاصة الأشراف منهم عارضوه جدلاً في دعواه وبنوا معارضتهم على مقدمات ثلاث اعتبروها أدلة مرجحة لمعارضتهم.

أولها: أن نوحًا بشر فلا مزية له عليهم تخصه بالنبوة فأنكروا أن يكون الرسول من البشر.

ثانيها: أن أتباعه مجموعة من الضعفاء استجابوا له من غير تفكير ولا تدبر.

ثالثها: أنه لا يوجد معه أي أمر مادي يوجب التفضيل كالغنى وكثرة العرض فليس له من زيادة شرف في الملك والمال تؤهله للنبوة.

ثم ختموا هذه المقدمات بنتيجة سيئة تدل على سوء تقديرهم وهو قولهم "بل نظنكم كاذبين" لكون كلام نوح ومن معه واحد ودعواهم واحدة، إلا أن نوحًا عليه السلام يتلقى الاتهام والإعراض والاستكبار في سماحة النبي وفي ثقته بالحق الذي جاء به ويحاورهم في وضوح، فلا يشتم كما شتموا ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرًا غير حقيقته.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود/٢٨-٣١].

يبدأ نوح عليه السلام في الرد عليهم بحوار كله سماحة ومودة فيناديهم بلطف فينسبهم إليه وينسب نفسه إليهم نقطة التقاء يتفق عليها أطراف الحوار فيتلطف في حواره ليوجه أنظارهم ويلمس وجدانهم ويثير حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة، ليبصرهم بأن الأمر ليس

موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها وفي هذا يلفت نظر الدعاة إلى الله بأن يقتدوا في نبي الله نوح حتى يتركوا للناس مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع فيما يدعون إليه بالنظر والتدبر لا بالقهر والسلطان والاستعلاء ويجب أن لا يستفزه القوم بكلامهم وأن يستمر معهم بحوار هادئ رزين ويرد على شبههم شبهة شبهة ويبين فسادها وبطلانها وأن تتسع صدورهم للمدعوين كما فعل سيدنا نوح عليه السلام مع قومه، فقد رد على الشبهة الأولى وهي كونه بشرًا فقال لهم:

﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود/٢٨]، أي إن الرسالة اصطفاء من الله تعالى، فالله يختص برحمته من يشاء ولا يجوز لهم أو لا يمكنهم حجز رحمة الله عن أحد من خلقه، وهل يمتنع على الله أن يصطفي رسلاً من البشر وهم لا يستطيعون رد ما أكرمه الله به.

ورد عليه السلام على الشبهة الثانية وهي: أن أتباعه من ضعفاء الناس ومن المتأخرين في الأسباب الدنيوية، فرد عليهم أنه لا يطلب مالاً وإنما هو مبلغ رسالة ربه لجميع الناس فقرائهم وأغنيائهم فهم أمام الدعوة سواء ومسئوليتهم واحدة وسيلاقوا ربهم ويحاسبهم وأن مقياس الله للبشر لا علاقة له بالغنى والفقر، والشرف والضعف، وأن التقدم في الدنيا لا يقرب أحدًا من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، وأنه بعث مرغبًا في طلب الآخرة ورفض الدنيا مزهدًا فيها مصغرًا لشأنها وشأن من آخلد إليها[1] فكيف تميل نفسه إلى الشرفاء والأغنياء ويصطفيهم ويطرد الفقراء والضعفاء فمن ينصره من الله ويدع عنه عذابه.

---

١) الكشاف ج ٢ ص ٢٦٥.

ورد عليه السلام على الشبهة الثالثة: وهي "وما نرى لكم علينا من فضل" بأنه لا يملك خزائن السموات والأرض فلا يستطيع أن يعطي من آمن برسالته، ثم إن الدنيا ليست دار التفضيل بالمال والخيرات وإنما التفضيل بالإيمان والعمل الصالح.

وبهذا نرى كيف أن سيدنا نوح عليه السلام قد سلك معهم أرقى أساليب الحوار واستطاع أن يبطل شبههم بحوار هادئ رزين ومنطق سليم، ولكنهم قوم عميت بصائرهم عن معرفة الحق فكابروا، وعاندوا، واتهموا نوحًا بالجدل وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب، ولكنه طلب السفهاء، فالعذاب ليس بيد نوح، وإنما بيد الله، ينزله إذا شاء وحده، ولن تعجزه أمة من الأمم، ولن يستطيع أحد أن يهدي من يشاء، وإنما الهداية بيد الله وحده، فهو يهدي القلوب، ويصرف كل شيء وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح، قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة، فأخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا فإذا هم يقلبون الحقائق ويتحدون:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا(١) فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود/٣٢].

احتجوا على نوح أنه قد خاصمهم وحاججهم فأكثر جدالهم فلم يدع لهم حجة إلا أبطلها، وتحدوه أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة إن كان من الصادقين(٢).

فكان الرد:

---

١) المجادلة: قصد أحد الخصمين إسقاط كلام صاحبه، وهو من الجدل وهو شدة الفتل (تنوير الأذهان ٢/١٧٦).

٢) التفسير الواضح ج ٢٧/١٢.

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود/٣٤].

****

****

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١- الحوار يجب أن يكون باللغة التي يفهمها الطرف الآخر.

٢- مخاطبة الطرف الآخر في الحوار يجب أن تكون بمنطق سليم وبعبارات موجزة واضحة غير قابلة للتأويل.

٣- الحوار يجب أن يتصف باللين والنصح والإشفاق والدعاء المستمر بالهداية.

٤- إياك أن تعطي فرصة لخصمك كي يستفزك لتغضب، فينقطع الحوار.

٥- على المحاور أن يكون دائمًا واثقًا من نفسه ومتوكلاً على الله، وأن الله ناصره إن عاجلاً أو آجلاً.- معايير التفضيل في الدنيا هي الإيمان والتقوى والعمل الصالح لا المال ولاالجاه. ولا السلطان.

٦- عندما يستنفد المحاور كل الطرق والسبل وتسد كل منافذه يترك أمر الخصم إلى الله يفعل به ما يشاء.

٧- يجب أن يكون الحوار بلسان القوم المحاورين، والأفضل أن يكون المحاور منهم تأليفًا لقلوبهم وتيسيرًا لهم في التفاهم والتعارف، وأن يخاطبهم بموجز العبارات التي لا تحتمل تأويلاً ولا تحويلاً ولا تبديلاً.

٨- على المحاور أن يبين للمحاورين أنه حريص عليهم ويريد مصلحتهم، وليس له غرض شخصي.

٩- دأب الداعية الصادق الثقة بالله وعدم طلب مطمع دنيوي.

١٠- على الدعاة إلى الله أن يقتدوا بالأنبياء، وأن يتركوا للناس مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع فيما يدعون إليه بالنظر والتدبر لا بالقهر والسلطان والاستعلاء.

١١- الرسالة اصطفاء من الله تعالى، والله يختص برحمته من يشاء.

١٢- جميع الناس أغنيائهم وفقرائهم أمام الدعوة سواء، وأن مقياس الله للبشر لا علاقة له بالغنى والفقر والشرف والضعف.

١٣- إن الدنيا ليست دار التفضيل بالمال والخيرات، وإنما التفضيل بالإيمان والعمل الصالح.

****

****



الحوار في العقيدة

حوار هود [عليه السلام] وجدل قومه

المبحث الثاني

حوار هود عليه السلام[1] وجدل قومه

من الملفت للنظر أن قوم عاد[2] لم يذكروا في أي كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم وقد ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم سبع مرات[3] وذكر حوار هود عليه السلام مع قومه في أربعة مواضع من القرآن.

الموضع الأول في سورة الأعراف وأطراف الحوار هود عليه السلام وقومه قوم عاد وموضوع الحوار: عبادة الله وحده.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف/٦٥]، أي كما أرسل إلى قوم نوح نوحًا كذلك أرسل إلى عاد أخاهم هودًا فهو واحد من أنفسهم، ليفهموه ويفهم منهم، ويعرفوا شمائله وأخلاقه فيكون ذلك أقرب إلى تصديقه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف/٦٥].

---

١) هو هود ابن شالح بن أرفشخذ بن سام بن نوح عليه السلام من أوسطهم نسبًا وأشرفهم حسبًا لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم.

٢) عاد: اسم لأبي القبيلة وقد اشتهر أنه اسم عربي، عن ابن عباس أن هودًا أول من نطق بالعربية، وهم من العمالقة وكانت مساكنهم في أرض الأحقاف وهي تقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها عدن وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس – وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر وذلك لشدة بأسهم وقوتهم (ابن كثير ج ٢ ص ٢٩).

٣) سورة الأعراف: ٦٥، وسورة هود: ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٠.

قال هود عليه السلام مخاطبًا قومه ومحاورًا لهم بأرق الألفاظ وأعذبها: يا قوم – نقطة التقاء بينه وبين من يحاور فهو واحد من قبيلتهم – وحدوا الله فهو وحده الذي ينبغي أن تخافوه فتؤمنوا، إلا أن الملأ له بالمرصاد فجاوبوه بكلام شنيع.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ[1] إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ[2] وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الأعراف/٦٦].

قال السادة والأشراف: إنك يا هود فيك خفة وحمق وطيش وجهال وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر – وما ذلك إلا لإبعاد الناس عنه وعن سماع قوله خشية أن يؤمنوا ويتبعوه – وإنا نظن كذبك فيما ادعيت من رسالة، ولكن هودًا عليه السلام يجاوب قومه بثقة عالية مع بقاء روابط وأواصر القرابة لعلهم ينتهون، سالكًا معهم طريق حسن الحوار:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف/٦٧ -٦٩].

قال هود عليه السلام: يا قوم ويا أهلي ليس بي أي شيء منها ولا شائبة من شوائبها ولكني في غاية الرشد والصدق، فإني معروف بالأمانة فأنا رسول رب

---

١) قال الزمخشري: فإن قلت: لم وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن (٢/ ٨٧).

٢) جعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيه غير منفك عنها (الكشاف ٢/ ٨٧).

العالمين، في الغاية القصوى من الرشد والصدق، أهديكم لمصالح الدين والدنيا، وقد وهبني الله العقل التام لأبلغكم رسالات الأنبياء من قبلي، وأنتم تعلمون أني معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك – حيث نفى عن نفسه السفاهة فقط ولم ينسبها لهم، مع أنهم أضل الناس وأسفه الناس – أدب حسن وحوار حسن وخلق عظيم. وفي هذه الإجابة من الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم للدعاة كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم – فهل استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من مالك أموركم ومربيكم على لسان رجل من قومكم من جنسكم ليحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الفكر والمعاصي، واذكروا وقت استخلافكم وتدبروا في أموركم، واذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء في الأرض بعد قوم نوح بأن جعلكم ملوكًا وزادكم في الإبداع والتصوير قوة وطولاً، وكان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين ذراعًا من الأرض[١] وذلك زيادة على ما كان غيرهم في الأبدان فاذكروا نعمته عليكم ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض والبسطة في الخلق، وغير ذلك مما أنعم به عليهم – وهو تعميم بعد تخصيص – لكي يؤديكم ذكر النعم إلى الشكر المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب[٢] فذكر النعم سبب باعث على شكرها ومن شكر فقد أفلح[٣].

فأجابه قومه عن تلك النصائح الجليلة مجادلين:

---

١) الجلالين ص ١٠٣.

٢) تنوير الأذهان: ٥٤٩/٢.

٣) فتح القدير: ٢١٨/٢.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف/٧٠].

قال قوم هود في استكبار وعناد واستنكار: يا هود أجئتنا لنخص الله وحده بالعبادة – وكان هذا مستنكرًا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه – ونترك الآلهة التي كان آباؤها يعبدونها؟ فاستعجل لنا العذاب إن كنت صادقًا في قولك – وهذا لشدة تمردهم على الله وجدالهم لنبيهم جدالاً بالباطل – أي أنهم أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة:

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ(١) وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف/٧١].

قال هود عليه السلام مستنكرًا ما وقع منهم من المجادلة: قد استحققتم ووجب عليكم عذاب من جهة الله وغضبه واقع بكم لا محالة – جعل ما هو متوقع كالواقع، تنبيهًا على تحقيق وقوعه – لأنكم تجادلوني في أسماء الأصنام التي تعبدونها وهي عارية من المسمى لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطل فإنها معدومة لم توجد ولا تستحق العبادة لأنها في معزل عن الألوهية، سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ولا حقيقة لذلك ولا حجة ولا برهان، فانتظروا ما تطلبونه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم ولا شك، ذلكم بتكذيبكم لي.

---

١) الرجس: العذاب الشديد، وقيل من الارتجاس الذي هو الاضطراب.

وتأتي خاتمة هذا الحوار ونتيجته أن الله تبارك وتعالى نجّى هودًا ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم يقبل رسالته، حيث استأصلهم فلم يبق منهم أحدًا يخلفهم:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف/٧٢].

فوقع العذاب فأنجينا هودًا والذين معه برحمة عظيمة كائنة من جهتنا عليهم، واستأصل وأهلك هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب وعدم الإيمان[1] فقد أصروا على الكفر ولتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبدًا، وفي هذا تنبيه أن مناط النجاة هو الإيمان بالله تعالى وتصديق آياته، كما أن البوار هو الكفر والتكذيب[2].

وقد ورد في قصة إهلاكهم أن عادًا قد تبسطوا في الدنيا ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء وصمد والهباء فبعث الله إليهم هودًا نبيًا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبًا فكذبوه وازدادوا عتوًا وتجبرًا وأن الله تعالى أمسك عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذ جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، فبعثت

---

١) كان العذاب الذي أخذ الله به قوم عاد ريحًا عاصفة شديدة البرد، دمرت ديارهم وأشجارهم، وكانت تحمل الحجارة فتقذفها في وجوههم وتحملهم فتضربهم بالأرض، قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (زبدة التفسير ص ٢٠٤).

٢) تنوير الأذهان: ١/٥٤٩.

عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستقوا لهم، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا بيضاء وسوداء وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: إختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب، فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه منادٍ: "اخترت رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا" وساق الله السحابة السوداء بما فيه من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال لها المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا هذا عارض ممطرنا، يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ [الأحقاف/٢٤] أي تهلك كل شيء مرت به، فسخرها الله سبع ليال وثمانية أيام حسومًا كما قال الله تعالى، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك[١].

والموضع الثاني من الحوار جاء في سورة هود[٢] وأطراف الحوار، هود عليه السلام وقومه وموضوعه بيان حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية.

أرسل الله تعالى إلى قوم عاد أخوهم هودًا فدار بينهم الحوار التالي:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا[٣] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى

---

١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٠، وذكر الطبري نحو هذه القصة ج ٨/ ٢١٧ عن ابن إسحاق، وذكر الزمخشري نحوه ٢/٨٨.

٢) هود: ٥٠ –٦٠.

٣) معطوف على وأرسلنا نوحًا: أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم: أي واحد منهم وهودًا عطف بيان.

ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ[1] ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ[2] يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ[3] وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود/٥٠-٥٢].

قال هود عليه السلام: يا قوم –يبدأ عليه السلام بحوار فيه تودد وتذكير بالأواصر التي تجمعهم حتى يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول، فالرائد لا يكذب أهله والناصح لا يغش قومه – اعبدوا الله وحده لا شريك له فليس لكم معبود يستحق العبادة عليكم غيره، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية، ما أنتم في إشراككم معه الآلهة والأوثان إلا أهل فرية مكذبون تختلقون الباطل لأنه لا إله سواه، ويستمر في حواره فيقول: ويا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وخلع الأوثان والبراءة منها جزاءً وثوابًا فلست بطامع في أموالكم[4]، إن ثوابي إلا على الذي خلقني، ويا قوم آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم، فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قطر السماء عليكم يتبع بعضه بعضًا في وقت حاجتكم إليه وتحيا

---

١) أي آمنوا به.

٢) لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان.

٣) إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات حرصًا عليهم أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مستحرزين بها من العدد مهيبين في كل ناحية (الكشاف ٢/٢٧٥).

٤) ما من رسول إلا خاطب قومه بهذا القول لأن المال والجاه وثناء الخلق من مشارب النفس، وذلك إزاحة للتهمة، وتمحيصًا للنصيحة فإنها لا تنجع ولا تنفع إلا إذا كانت خالصة، غير مشوبة بشيء من المطامع، وفي هذا لفت نظر للمحاورين حتى يكون لهم قدوة حسنة بالرسل.

بلادكم من الجدب والقحط، ويزدكم شدة إلى شدتكم، -حوار صادق من قلب مفعم بالإخلاص لهم فلو كانت قلوبهم حية لاستجابوا وهكذا يجب أن يكون دأب المحاورين الذين يدعون إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الا أن قوم هود لم يستجيبوا وردوا على الحوار بسفاهة وجدل: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود/٥٣-٥٤].

قال قوم هود: يا هود ما أتيتنا ببيان ولا برهان على ما تقول حتى نسلم لك ونقر بأنك صادق فيما تدعونا إليه من توحيد الله، وما نحن بتاركي آلهتنا من أجل قولك وما نحن لك بما تدعي من النبوة والرسالة من الله إلينا بمصدقين، وأن الذي حملك على ذمها والنهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبل من جنون، لسبك إياها وصدك عنها ونهيك عن عبادتها وعيبك لها[1] وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين.

فجاوبهم عليه السلام:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا[2] إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ

---

١) ابن كثير: ٢/ ٢٢٣.

٢) الأخذ بالناصية عبارة عن القهر والغلبة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصيته إلا بيد فلان، أي انه مطيع له لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته، وأخذ الله بناصية=

أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود/٥٤-٥٧].

قال هود عليه السلام لهم: أني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أيضًا أني بريء مما تشركون في عبادة الله من آلهتكم وأوثانكم من دونه، فاحتالوا أنتم جميعًا وآلهتكم في ضري ومكروهي ثم لا تؤخرون ذلك بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم، إني على الله توكلت فهو مالكي ومالككم، وهو يعصمني من كيدكم فلن تصيبوني أنتم وغيركم من الخلق بسوء، لأنه ليس من شيء يدب على الأرض إلا والله مالكه في قبضته وسلطانه ذليل وله خاضع، إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لا يظلم أحدًا، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام والإيمان به، فإن أدبرتم معرضين عما أدعوكم إليه فلا تفريط مني فما على الرسول إلا البلاغ فسيهلككم ربي ويستبدل قومًا غيركم يوحدونه ويخلصون له العبادة، ولا تقدرون على ضري إذا أراد إهلاككم إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم فهو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، ومن يدبر أمر المربوب ويحفظه فلا يحتاج إلى حفظ الغير. ثم تحدث الحق تبارك وتعالى عن نجاة هود عليه السلام والذين آمنوا معه وهلاك عاد بالسموم.

---

*الخلائق استعارة تمثيلية، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره.

قال الفراء: معنى آخذ بناصيتها مالكها والقادر عليها، والناصية: قصاص الشعر من مقدم الرأس.

والموضع الثالث من حوار نبي الله هود جاء في سورة الشعراء[1] وأطراف هذا الحوار نبي الله هود وقومه وموضوع الزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة، وترفع عن قيم الأرض الزائلة، وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم.قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ[2] عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[3] ءَايَةً تَعْبَثُونَ[4] ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[5] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ[6] ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء/١٢٣-١٣٥].

قال هود عليه السلام لقومه يحاورهم ويذكرهم بالنعم مستفيدًا من كونه واحدًا منهم وينتسب إليهم: ألا تتقون الله تعالى، فإني رسول من جهته، مشهور

---

١) الشعراء: ١٢٣- ١٤٠.

٢) أنّث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عاد اسم أبيهم الأعلى (فتح القدير ١٠٩/٤).

٣) الريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلاً باهرًا (ابن كثير ٦٥٢/٢)، وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا من طرقهم أعلاماً طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنين بالنجوم (الكشاف ١٢١/٣).

٤) تعبثون: أي إنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو إظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة (ابن كثير ٣٦٥/٢).

٥) مصانع: قال مجاهد: بروج مشيدة وبنيان مخلد أو بروج الحمام، قتادة: مآخذ الماء.

٦) أي تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبتون متفكرين في العواقب (الكشاف ١٢٢/٣) أو متسلطين ظالمين بلا رأفة ولا قصد تأديب، والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب (تنوير الأذهان ١٠٩/٣).

بالأمانة فيما بينكم، فخافوا من عقابه، وأطيعوني فيما آمركم به من حق، وما أطلب منكم على أمري إياكم باتقاء الله جزاء، ولا ثوابًا، إن جزائي وثوابي على نصيحتي إلا على رب العالمين، إنكم تبنون بكل مكان مرتفع علمًا تعبثون ببنيانه إذ ليس فيه نفع حقيقي غير المباهاة والفخر والأذى، فتؤذون المارة وتسخرون منهم، وتتخذون حصونًا مشيدة كأنكم باقون مخلدون لا يدرككم الموت، فاتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار[1].

فأجابه قومه:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾[2] إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء/١٣٦ -١٣٨].

قال قومه: وعظك وعدمه سواء عندنا، لا نبالي بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله، ولا نرجع عن شيء مما نحن فيه، وما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين

---

١) الطبري: ٩٦/١٩.

٢) الوعظ: زجر يقترن بتخويف، وكلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد.

قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة، والموعظة الاسم (تنوير الأذهان ١٠٩/٣).

وقد قيل: خير ما أعطي الإنسان عقل يردعه، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فخوف يقمعه، فإن لم يكن فمال يسعده، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه، وتريح منه العباد والبلاد. فعلى العاقل أن يعتبر ويخاف من عقوبة الله تعالى ويترك العادات والشهوات، ولا يصر على المخالفات والمنهيات، وقد أهلك الله تعالى قوم عاد على شدة قوتهم وشوكتهم بأضعف الأشياء وهو الريح.

وفعلهم، وما نحن بمعذبين على ما نفعل من البطش ونحوه مما نحن عليه الآن، إنه الجدل العقيم الذي يرفض كل أساليب الحوار البناء.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء/١٣٩-١٤٠].

والموضع الرابع في سورة الأحقاف[1] وهوآخر حوار دار في قصة هود وقومه وأطراف الحوار، هود عليه السلام وقومه وموضوع المحاورة إنذار قومه من الهلاك.

وفي هذا الموضع نجد أن لهجة الحوار اشتدت بعد أن استنفذ جميع الوسائل للدعوة، فبين القرآن كيفية الهلاك من حيث توقع الخير، فلم تغن عنهم قوتهم ولم يغن عنهم ثراؤهم ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربًا بزعمهم إلى الله. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ[2] وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ[3] مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف/٢١].

قال هود عليه السلام لقومه: لا تشركوا مع الله شيئًا في عبادتكم إياه، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية إني أخاف عليكم أيها القوم عذاب الله

---

١) الأحقاف: ٢١ -٢٦.

٢) الأحقاف: جمع حقف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من أحقوقف الشيء إذا أعوج، و"إذ أنذر قومه" بدل اشتمال: أي وقت إنذاره إياهم.

٣) النذر: جمع نذير بمعنى المنذر، أي الرسل.

في يوم عظيم، إنه حوار فيه ود وصلة قرابة ليحسنوا الظن به وبدعوته، إلا أنهم لم يستجيبوا.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف/٢٢].

قالت عاد لهود: أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه وإلى اتباعك على قولك، فقد قابلوا اللطف والود بسوء الظن وعدم الفهم، والتحدي للنذير، واستعجال العذاب، والاستهزاء والتكذيب والإصرار على الباطل، لكن هودًا عليه السلام أجابهم في أدب وتجرد ووقف عند حده، وفي هذا لعبرة للدعاة والمصلحين.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [الأحقاف/ ٢٣].

قال هود عليه السلام لقومه: إنما العلم بوقت مجيء ما أعدكم به من عذاب الله على كفركم به عند الله، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله، إنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به في وقته المقدر له، وإنما أنا رسول مكلف أن أبلغكم عنه ما أرسلني به ولكنكم لا تعرفون المضرة في استعجال عذابه حيث بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم عليّ ما ليس من وظائف الرسل.

فجاءهم عذاب الله:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا(1) بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ(2) فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف/24-25].

رأوا سحابًا عارضًا في ناحية من نواحي السماء فقالوا: هذا الذي كان هود يعدنا، وهو الغيث، كذب هود، كذب هود.. فلما خرج نبي الله عليه السلام فشامه قال: بل هو العذاب الذي استعجلتم به، تخرب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه إلا هودًا ومن آمن معه، فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا، فلا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها.





1) روي أنه خرجت عليهم سحابة سوداء من واد لهم يقال له المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما شاهدوها قالوا ذلك مستبشرين بها مسرورين.

2) عن عائشة رضي الله عنها كان النبي ﷺ إذا رأى ريحًا مختلفة تلون وجهه وتغير ودخل وخرج واقبل وادبر فذكرت ذلك له فقال وما تدرون لعله كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ...﴾/ الآية) فإذا أمطرت سري عنه، أخرجه مسلم والترمذي، الدر المنثور 6/43. وكان ﷺ إذا عصفت الريح قال: (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به) أخرجه مسلم في صحيحه.

الدروس والعبر المستفادة من القصة

١- على المحاور أن تكون ثقته بنفسه عالية، وأن يتصف باللين والهدوء والسماحة والنفس الطويل، خاصة إذا كان الخصم يتصف بالجهل والعناد ويلوح دائما باستخدام القوة.

٢- المحاور الذكي هو الذي يمسك دائما بطرف حبل الحوار ولا يلجئ الطرف الآخر إلى قطعه.

٣- تذكير الخصم أن كل ما حصَّل عليه الإنسان من نعم هي من الله وأن الله قادر على أن يسترجعها أو يحولها إلى نقمة.

٤- عندما يستنفد المحاور كل سبل الحوار ويصم الخصم أذنيه عن سماعه ويبقى في دائرة الجدل والتعصب لموقفه، لا ضير أن يترك المحاور أمره إلى الله يفعل به ما يشاء.

٥- يجب أن لا يكون الهدف من الحوار الشهرة والمال والجاه بل ابتغاء مرضاة الله مهما كلفه ذلك من ثمن.

٦- ما يراه الإنسان أحيانًا بشرى ونعمة قد يكون فيه فاجعة ونقمة.

٧- يجب أن يكون المحاور صاحب أدب حسن وحوار حسن وخلق عظيم، وأن يكون في إجاباته من الحلم والإصغاء وترك المقابلة بما قالوا.

٨- ذكر النعم سبب باعث على الشكر، ومن شكر فقد أفلح.

٩- مناط النجاة الإيمان بالله تعالى وتصديق آياته.

١٠- على المحاور أن يبدأ بحوار فيه تودد وتذكير بالأواصر التي تجمعه مع الناس حتى يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول.

١١- الرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغش قومه.

١٢- على المحاورين أن يكون لهم قدوة حسنة بالرسل.

١٣- الجدل العقيم يرفض كل أساليب الحوار البنّاء.

****

****



الحوار في العقيدة

حوار صالح [عليه السلام] وجدل قومه

المبحث الثالث

حوار صالح عليه السلام[1] وجدل قومه[2]

إثبات العقيدة بالمعجزة:

ذكر اسم صالح عليه السلام في القرآن تسع مرات[3] بينما ذكر حواره مع قومه في أربعة مواضع، الموضع الأول في سورة الأعراف[4] وأطراف الحوار فيه صالح عليه السلام وقومه.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف/٧٣].

أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم أي واحدًا منهم في النسب لا في الدين كقولهم يا أخا العرب وإنما جعل الرسول من تلك القبيلة لأنه أفهم لكلامه وأعرف بحالهم وأقرب إلى اتباعه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى

---

١) صالح عليه السلام: هو ابن عبيد بن أسف بن عبيد بن ثمود.

٢) قوم صالح هم ثمود: وهي قبيلة سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن إرم بن سام، أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم بالحجر، وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم وهي منقورة في الصخر وما زالت تزار إلى اليوم، والمكان الذي فيه ديارهم يعرف بـ (فج الناقة).

٣) الأعراف: ٧٣، ٧٥، ٧٧ هود: ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩ الشعراء: ١٤٢.

٤) ٧٣ -٧٩.

ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف/٧٣-٧٤].

قال صالح عليه السلام: يا قوم اعبدوا الله التي لأجلها خلق الخلق فليس لكم رب غيره أفلا تتفكرون فتتقون عذاب الله تعالى وهو خالقكم ورازقكم دون كل ما سواه.

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد، حيث سلك كل واحد منهم في الدعوة مسلك الآخر وفي هذا عبرة للدعاء والمصلحين في حوارهم – قد أرسل الله إليكم ما طلبتم وسألتم وهو معجزة ظاهرة وشاهد على صحة نبوتي، إخراج الناقة من الحجر الصلد[1].

فمكثت الناقة في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فبعد ظهور هذه المعجزة قال لهم صالح: قد جاءتكم آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتي دعوا الناقة تأكل في أرض الله فهي ناقة الله[2] والأرض أرضه، فلا تمنعوها مما ليس لكم

---

١) روي أنه لما هلكت عاد عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض وكثروا في خصب وسعة فعتوا في الأرض، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قومًا عربًا وصالح من أوسطهم نسبًا، فدعاهم إلى الله تعالى، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية تكون مصداقًا لقوله. فقال: أية آية تريدون؟ قالوا وأشاروا إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء، فإن فعلت صدقناك وأجبناك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن، قالوا نعم: فصلى ركعتين ودعا ربه، فانصدعت عن ناقة عشراء وهم ينظرون ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم فآمن رهط من قومه، وامتنع الباقون من الإيمان (تنوير الأذهان ٢/ ٥٥٠).

٢) إضافة الناقة إلى اسم الله الجليل تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فحل وطروقه آية من آياته، كما يقال بيت الله.

ولا تملكونه ولا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوؤها وتضرها من قتل أو ضرب أو مكروه إكرامًا لآية الله تعالى، واذكروا وقت جعله إياكم خلفاء في أرض الحجر – أو خلفاء لقوم عاد بعد إهلاكهم - وأنزلكم وجعل لكم مباءة ومنزلاً في أرض الحجر، تبنون في سهولها قصورًا رفيعة وفي جبالها تنحتون بيوتًا[1]، فاحفظوا نعم الله عليكم فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا يغفل عنها ولا تكثروا في الأرض الفساد ولا تتمادوا فيه.

ولكن الرؤساء المستكبرون من قومه ذهبوا للمستضعفين الذين آمنوا مع صالح فجادلوهم استهزاء وسخرية.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ [الأعراف/٧٥] شيء قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية.

فأجابهم المستضعفون:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/٧٥].

قال المؤمنون: نعم لسنا فقط نعلم صدقه، بل نؤمن به ونتبعه ونطيع أمره وفي هذا الجواب من الأسلوب الحكيم للدعاة المصلحين حيث تلقى المخاطب بغير ما يترقب تنبيه على أن إرساله أمر معلوم أظهر من أن يشك فيه عاقل، لما أتى به من هذا المعجز العظيم الخارق. ولكن هذا الجواب لم يشف صدور قوم مجرمين فزادوا جدلاً وتعنتًا وعدلوا عن الجواب المطابق وهو إنا بما أرسل به كافرون.

---

١) كان الرجل يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال (الكشاف ٨٩/٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف/٧٦].

قال الملأ المستكبرون: ليس إرساله معلومًا لنا مسلمًا عندنا، وليس هناك إلا دعواه وإيمانكم به ونحن بما آمنتم به كافرون لا نصدق به، ولا نقر.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف/٧٧-٧٩].

لقد كان سبب هلاكهم قتل الناقة سواء نحروها أو قطعوا عرقوبها ومن الملفت للنظر هنا أنه أسند العقر إلى الكل -وإنما الذي عقرها واحد منهم[١] لأن ذلك كان برضاهم وموافقتهم فكأنه فعله كلهم – واستكبروا وعاندوا وجادلوا عن امتثال أمر ربهم وهو ما بلغهم صالح من النهي بقوله ولا تمسوها بسوء أو استكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه.

وقالوا مخاطبين لصالح عليه السلام بطريق الجدل والتعجيز والإفحام:

---

١) قيل هو قدار بن سالف -روي - أن الناقة كانت ترد الماء، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها، لا تدع قطرة واحدة ثم تتفجج فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم كلها فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من أعلى الفج الذي وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث ترد لضيقه.

قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعًا، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره. فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما، وكانتا كثيرتي المواشي (الكشاف ٢/ ٨٩).

يا صالح ائتنا بما تعدنا من العذاب على قتل الناقة إن كنت من جملة المرسلين، فأخذتهم الزلزلة الشديدة وقيل الصيحة الشديدة خلعت قلوبهم وقيل الزلزلة الشديدة من الأرض والصيحة من السماء[1] فصاروا في أراضيهم وفي مساكنهم خامدين لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، موتى لا حراك بهم[2] فعندما شاهد صالح عليه السلام هلاكهم تولى حزينًا مغتمًا متحسرًا على ما فاتهم من الإيمان متحزنًا عليهم وقد دعاهم بالترغيب والترهيب وبذل فيهم وسعه ولكنهم استهزأوا منه لكونه ناصحًا لهم فالنصح ثقيل والحق مر.

وفي هلاكهم روي – أنهم لما عقروا الناقة هرب ولدها إلى الجبل، فقال لهم صالح: أبشروا بعذاب الله ونقمته، فقالوا له: وما علامة ذلك.

فقال: تصبحون غداة يوم الخميس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب أول يوم الأحد.

فكان الأمر كما وصف نبيهم فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، فأتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت

---

1) الجلالين ص ٢٠٤ – وقيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت، لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فقرن كل منهما بما هو أليق به.

2) يقال: الناس جثم: أي قعود لا حراك بهم، ومن المجثمة التي جاء النهي عنها وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى، والعرب تقول للبارك على الركبة: جاثم.

كل شيء له صوت ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم أحد إلا هلك [1].

ربط العقيدة بأصل المنشأ:

والموضع الثاني من حوار صالح مع قومه جاء في سورة هود[2] وأطراف الحوار صالح عليه السلام وقومه وفي هذا الحوار نرى نمطًا جديدًا للحوار يستحق الدراسة والبيان:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا[3] قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[4] فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود/٦١].

---

1) تنوير الأذهان ٥٥٢/٢ – روي عن جابر بن عبدالله أنه قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر في غزوة تبوك، قال لأصحابه: "لا يدخلن أحد منكم هذه القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم" أخرجه البخاري ومسلم وأحمد.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: (يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد هذا الفج فتشرب ماءها يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غبها. وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعدهم الله بالعذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض أو مغربها، إلا رجلاً كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فقيل من هو يا رسول الله؟ فقال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه).. أخرجه أحمد والبزار والحاكم وصححه.

2) هود: ٦١ -٦٨.

3) معطوف على ما تقدم والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا.

4) استعمركم فيها: أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الآبار وغرس الأشجار وعمروا الأعمال الطوال مع ما كان منهم من-

قال صالح عليه السلام محاورًا قومه بأسلوب يلفت الانتباه ويجلب القلوب، يا قوم: اعبدوا الله وحده لا شريك له وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة، فمالكم من إله غيره فهو ابتدأ خلقكم من الأرض – ويقصد أبوهم آدم – وجعلكم عمارًا فيها وأسكنكم فيها أيام حياتكم، فاعملوا عملاً يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم وذلك الإيمان به وإخلاص العبادة له دون سواه، واتباع رسوله صالح، ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، فإن ربي قريب الرحمة ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه.

ولكن هذا الحوار البديع لم يعجب أهل العناد فحولوا المحاورة إلى جدل وشطوا في الكلام.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ[1]﴾ [هود/٦٢].

قالت ثمود لصالح: كنا نرجو أن تكون فينا سيدًا قبل هذا القول الذي قلته لنا فقد كانت تلوح منك مخايل الخير وأمارات الرشد والسداد، فلما سمعنا منك هذا القول انقطع رجاؤنا منك، وعلمنا أن لا خير فيك، أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كانت آباؤنا تعبد، ونحن لا نعلم صحة ما تدعونا إليه من التوحيد.

=عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره فقيل له، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا تكون له في الأرض آثار

(الكشاف ٢/٢٧٨).

١) مريب من الريبة: وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

فجاوبهم صالح محاوراً:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ[1] إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ[2] ۝ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود/٦٣-٦٤].

قال صالح لقومه: يا قوم أرأيتم إن كنت على برهان وبيان من الله قد علمته وأيقنته، وآتاني النبوة والحكمة والإسلام فمن الذي يدفع عني عقابه إذا ما عاقبني إن أنا عصيته، فيخلصني منه فما تزيدونني بعذركم الذي تعتذرون به من أنكم تعبدون ما كان يعبد آباؤكم غير تخسير لكم يخسركم حظوظكم من رحمة الله وهذه ناقة الله حجة وعلامة ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه فليس عليكم رزقها فلا تقتلوها ولا تنالوها بعقر حتى لا يأخذكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم، ولكنهم عقروا الناقة: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

فقال لهم صالح عليه السلام:

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ

---

١) استفهام بمعنى النفي، أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله.

٢) قال الفراء: أي تضليل وإبعاد من الخير.

جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود/٦٥-٦٨].

التذكير بالنِّعم:

والموضع الثالث من حوار نبي الله صالح جاء في سورة الشعراء[١] وأطراف الحوار نبي الله صالح وقومه ثمود وموضوعه: التذكير بما هم فيه من النعم، وتخويفهم سلب هذه النعمة، وتخويفهم بالحساب.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ[٢] إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[٣] ۝ أَتُتْرَكُونَ[٤] فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ[٥] طَلْعُهَا هَضِيمٌ[٦] ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء/١٤١-١٥٢].

قال صالح عليه السلام لقومه: ألا تتقون عقاب الله يا قوم على معصيتكم إياه، وخلافكم أمره، بطاعتكم أمر المفسدين، إني رسول لكم من الله

---

١) الشعراء: ١٤١ -١٥٩.

٢) كما يسأل بعض نقلة القصص.

٣) وفي هذا إشارة إلى أن الداعية يجب أن يتنزه عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية.

٤) الاستفهام للإنكار والتوبيخ/ أي: أتظنون أنكم تتركون؟.

٥) أفرد النخل مع دخولها في أشجار الجنات، لفضلها على سائر الأشجار.

٦) هضيم: أي لطيف ولين في جسمه.

أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبته على خلافكم أمره، أمين على رسالته التي أرسلها معي إليكم فاتقوا الله أيها القوم، واحذروا عقابه وأطيعون في تحذيري إياكم، وما أسألكم على نصحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب، إن جزائي وثوابي إلا على رب جميع ما في السموات والأرض وما بينهما، ويا قوم أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين لا تخافون شيئًا، تتمتعون في بساتين وعيون ماء ونخل يانع نضيج، وتتخذون من الجبال بيوتًا حاذقين بنحتها أشرين بطرين تتجبرون، ويا قوم لا تطيعوا أمر المسرفين في تماديهم في معصية الله واجترائهم على سخطه -وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون من ثمود.

فجاوبه قومه جدلاً:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ[1] ۝ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء/١٥٣ و١٥٤].

قال قومه مجادلين على عادة السفهاء من الناس: إنك من الذين أصيبوا بالسحر، حتى أخذت تتخيل أمورًا من الباطل حقًا، وحتى أخذت تنكر علينا ما استقامت عليه حياتنا وجرى عليه آباؤها وأجدادنا[2]، أو إنما أنت من المخلوقين الذين يعيشون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربًا ولا ملكًا فنطيعك، ولا نعلم أنك صادق فيما تقول[3]، فأت بدلالة وحجة على أنك محق فيما تقول:

---

١) المسحَّر: المفعَّل من السحرة، وهو الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله.

٢) فتح القدير.

٣) الطبري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ١٩/١٠٣.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء/١٥٥-١٥٦].

قال صالح عليه السلام لقومه: يا قوم هذه ناقة لها شرب ولكم مثله شرب يوم آخر معلوم، لا تمسوها بما يؤذيها من قتل وعقر وغير ذلك فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم.

فخالفت ثمود أمر نبيها:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ[1] ۝ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء/١٥٧-١٥٩].

فعقروا الناقة فأصبحوا نادمين ولكن لم ينفعهم ندمهم وأخذهم عذاب الله الذي توعدهم به إن في إهلاكهم لعبرة لمن يعتبر فهو عزيز في انتقامه من أعدائه رحيم بمن آمن به من خلقه.

استعجال العذاب:

الحوار الرابع ورد في سورة النمل[2].

---

١) فإن قال قائل: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ كان الجواب: لم يكن ندمهم ندم تائبين، وإنما ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابًا عاجلاً كمن يرى في بعض الأمر رأيًا فاسدًا ويبني عليه ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعي، أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة وذلك عند معاينة العذاب. (الكشاف: ٣/١٢٤).

٢) النمل: ٤٥ -٥٣.

وأطراف الحوار صالح عليه السلام وقومه وموضوع المحاورة استعجال العذاب.

وهو حوار بطريقة جديدة ومحاولة أخرى منه عليه السلام يلمس فيها فساد قلوبهم وطويتهم، فدعاهم لعبادة الله وحده وأن لا يجعلوا معه إلهًا غيره، فلما أتاهم صار قومه فريقان يختصمون، فريق مصدق به وفريق مكذب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ[1] بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا[2] تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل/٤٥، ٤٦].

قال صالح لقومه: يا قوم لأي شيء تستعجلون بعذاب الله قبل الرحمة، فهلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيصفح عنكم.

فجاوبوه بعد هذا الإرشاد الصحيح والحوار اللين أنهم:

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا[3] بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل/٤٧].

---

١) الاستعجال: طلب الشيء قبل وقته.

٢) لولا: حرف تحضيض بمعنى هلا.

٣) اطيرنا: أصله تطيرنا ادغمت التاء في الطاء واجتلبت همزة الوصل.

أي تشاءمنا (الجلالين / ٥٠٠)، وكان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره، فإن مر سانحًا تيمن وإن مر بارحًا تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة، ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك أي قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن (الكشاف ٣/ ١٥١).

قالت ثمود لصالح: تشاءمنا بك وبمن معك من الأتباع، فما رأينا على وجه من اتبعك خيرًا – وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه.

فجاوبهم:

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل/٤٧].

فقال لهم: ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكروه فعند الله علمه، ولا يدري أي ذلك كائن، بل أنتم قوم تختبرون.

ثم ينتقل الحوار من القوم عامة إلى الرهط الأكثر فسادًا وإفسادًا:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ[1] يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل/٤٨، ٤٩].

خصَّ الله جل ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط لأنهم هم الذين سعوا في عقر الناقة وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح.

قال الرهط التسعة: تحالفوا بالله أيها القوم، لنبيتن صالحًا وأهله، فلنقتلنه، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله.

عن ابن إسحاق قال: قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحًا، فإن كان صادقًا –يعني فيما وعدهم من العذاب بعد الثلاث– عجلناه قبله وإن كان كاذبًا نكون قد ألحقناه بناقته، فأتوا ليلاً ليبيتوه في أهله، فدفعتهم الملائكة

---

١) كانوا من أبناء أشرافهم، شأنهم الإفساد البحت الذي لا يختلط بشيء من الصلاح.

بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا[1] وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ[2] وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل/٥٠-٥٣].

احتالوا لأمرهم فمكروا بصالح واحتال الله لهم فمكر بهم وهم لا يشعرون، فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم ليس فيها أحد.

****

****

١) المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة.

٢) التدمير: استئصال الشيء بالهلاك.

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١- الحوار بلسان الطرف الآخر قد يكون أوضح وأجدى.

٢- المعجزات والخوارق خاصة بالآنبياء بقدرة الله ومشيئته..

٣- رسالة كل نبي هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة سواه.

٤- الجاه والثراء والكبر من أسباب العناد والتعصب والإصرار على الموقف وتحويل الحوار إلى جدل.

٥- المخاطبة أثناء الحوار يجب أن تكون موجزة وواضحة، وتتصف باللين والهدوء والسماحة واللطف.

٦- تذكير المخاطب أن ما به من نعمة فهي من الله.

٧- إذا استنفد المحاور كل أساليب الترغيب والترهيب، فلا مناص أن يترك الأمر لله ليفعل ما يشاء.

٨- يجب أخذ العبر والدروس من الكوارث التي تصيب الأقوام والشعوب.

٩- من صفات العاجز عن الحوار لجوؤه إلى العنف والتلويح بإيقاع العقوبة في الخصم.

١٠- إن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد.

١١- من حق الله تعالى أن يُشكر على آلائه ولا يغفل عنها.

١٢- أهل العناد لا يعجبهم الحوار؛ لذا فإنهم يحولونه إلى جدل وشطط في الكلام.

١٣- على الداعية أن يتنزه عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية.



الحوار في العقيدة

حوارات إبراهيم [عليه السلام]

حوارات إبراهيم [عليه السلام]

أعطى الله إبراهيم عليه السلام هداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا وأضاء له سبيل الرشاد فسار على نهج نوح عليه السلام وسلك طريقه في التوحيد والبعث، فحاور قومه وصبر على تكذيبهم، ومن الملفت للنظر أن إبراهيم عليه السلام من حسن حواره أنه رتب كلامه حين سأل قومه عما يعبدون سؤال مقرر لاستفهامهم ثم انحنى على آلهتهم، فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة وفي هذا قدوة للدعاة ليكونوا على بصيرة في حوارهم مع خصومهم وأن يتبرأوا من التعصب والتعسف وأن يوردوا الحجج ويقيموا البراهين فإنه ربما انقاد واستجاب من لم يستحكم داء التقليد في قلبه، أما من استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أورد عليه كل حجة وأقام عليه كل برهان فلن يعير إلا أذنًا صماء وعينًا عمياء، ولكن واجب الدعاة البيان والحوار على طريقة القرآن، أما الهداية فهي بيد العليم العلام. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(1) [القصص/٥٦].

إثبات العقيدة عن طريق التلطف في الحوار:

وأطراف الحوار إبراهيم عليه السلام وأبوه آزر حيث استخدم فيه إبراهيم أجمل أنواع الحوار، وقد كان عليه السلام ملازمًا للصدق مبالغًا فيه، جامعًا بين الصديقية والنبوة والغرض لفت نظر العرب لأنهم يعترفون بفضل إبراهيم ويزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء.

---

١) فتح القدير: ١٠٤/٤.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم/٤١-٤٥].

قال إبراهيم متلطفًا بالحوار مستميلاً لأبيه نحو الهداية والإيمان:

يا أبي: لم تعبد صنمًا لا يسمع ولا يبصر ولا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضرًا.

يا أبي: إني قد اطلعت على العلم بالله ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه، فاتبعني أهدك طريقًا مستقيمًا لا زيغ فيه، يفضي بك إلى السعادة والنجاة ولا تستنكف عن التعلم مني – فهنا لم يواجه أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه ولم يصف نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل جعل نفسه في صورة رفيق له في مسير يكون به أعرف.

يا أبي: لا تطع الشيطان في عبادة هذه الأصنام فإن الشيطان عاصٍ للرحمن مستكبر على عبادة ربه فمن أطاعه غواه.

يا أبي: أحذرك من سوء العاقبة وأخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قرينًا للشيطان في الخلود في النار فتهلك وتخسر.

ومن الملفت للنظر في هذا الحوار إيراد الكلام بلفظ "يا أبت" في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة من إبراهيم عليه السلام في صون أبيه من العقاب، وإرشاده إلى الصواب، فانظر أيها الداعي كيف أن إبراهيم عليه السلام أبو

الأنبياء وإمام الدعاة والمصلحين حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحًا في ذلك بنصيحة ربه عزَّ وعلا.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أظله تحت ظل عرشي وأسكنه حظيرة القدس وأدنيه من جواري»[1].

ثم انظر كيف رتب عليه السلام الحوار في غاية الحسن، فتجد أنه نبهه أولاً على بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام، مع رعاية الأدب والرفق في الحوار، وفي قوله (إني أخاف) دليل على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاء لحق الأبوة[2].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم/٤٦].

قال آزر بإصرار وعناد: أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرف عنها ولا ترغب في عبادتها؟ لئن لم تنته عمّا أنت فيه من النهي عن عبادتها والدعوة إلى ما دعوتني إليه لأرجمنك بالحجارة؛ فاحذرني وابعد عني دهرًا طويلاً – ومن الملفت

---

١) الكشاف ٢/ ٥١٠.

٢) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ٢١/٢٢٦، صفوة التفاسير ٢/٢١٩.

للنظر أن الأب قابل رفق الابن بالعنف، فلم يقل يا بني كما قال الابن يا أبت، وقابل وعظه بالسفاهة وهدده بالرجم بالحجارة.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا[1] ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم/٤٧-٤٨].

قال إبراهيم عليه السلام في جوابه: أمان لك مني يا أبتاه فلا أعاودك فيما كرهت مني قط وسأقابل إساءتك بإحسان لحرمة الأبوة، وأطلب من الله أن يهديك للإيمان والتوحيد ويغفر لك ذنوبك، إنه سبحانه وتعالى لطيف بي مكرم لي معتن بشأني ولا يخيبني فيما أدعوه، وإني ذاهب بعيدًا عنكم تارك لكم ما تعبدون من دون الله من الأصنام فإن رجائي في ربي كبير راجيًا بسبب إخلاصي له ألا يجعلني شقيًا.



---

١) الحفي: المبالغ في البر والإلطاف يقال: حفي به وتحفى إذا بره وقال الفراء: أي عالمًا لطيفًا يجيبني إذا دعوته (القرطبي ١١/١١٣).

جاء في الحديث (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي أن يكون في النار. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم انظر تحت رجليك؟ فينظر فإذا بذيخ متلطخ –والذيخ بكسر الذال ذكر الضباع الكثيرة الشعر– فيؤخذ بقوائمه ويلقى في النار.. صحيح البخاري، الفتح الكبير ٢/٤٣٤.

إثبات العقيدة عن طريق الإفحام:

وأطراف المحاورة إبراهيم عليه السلام والنمرود[1] ولما في هذا الحوار من فوائد للنبي محمد ﷺ فقد قال له تعالى: ألم ينته إلى علمك مجادلة ذلك الطاغية لإبراهيم عليه السلام.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة/٢٥٨].

قال إبراهيم: ربي الذي بيده الحياة والموت يحيي من يشاء ويميت من أراد.

فجاوبه النمرود جدلاً:

﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة/٢٥٨].

فقال النمرود: أنا أفعل ذلك فأحي من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، وفي هذا مكابرة ومشاغبة.

فجاوبه إبراهيم عليه السلام:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة/٢٥٨].

قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من مشرقها فأت بها من مغربها إن كنت صادقًا، فانقطعت حجته، ودهش ولم يجد جوابًا، وكأنما ألقمه حجرًا[2]

---

١) النمرود: هو النمرود "قرئ بالدال أو بالزاي" بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقيل هو فالغ به عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح – جبار بابل (الطبري ٢٣/٢).

٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ٢١/٣.

ومن هذا الموقف نستفيد جواز حوار المجادل لإثبات العقيدة الصحيحة السليمة مهما كان مركزه ومنزلته وأنه إذا كان المجادل يتحامق لا يحاوره فيما يخاصم فيه ولكن ينتقل إلى ما لا يقدر فيه ليبهته أول شيء وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من مثال إلى مثال. وفي قصة هذه المحاورة روى زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض نمروذ، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم عليه السلام بمتار مع من يمتار، فإذا مر به –أي النمرود- ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت، حتى مر به إبراهيم، فقال: من ربُك؟ قال: الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، فرده بغيرطعام، فرجع إلى أهله فمر على كثيب من رمل فقال: ألا آخذن هذا فآتي به أهلي، فتطيب أنفسهم حيث أدخل عليهم، فأخذ منه فأتى أهله، فوضع متاعه ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هي بأجود طعام رآه فصنعت له منه فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه، فحمد الله[1].



◆◆◆◆◆◆◆◆◆

1) أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، الطبري ٢٥/٣، فتح القدير ١٧٥/١.

إثبات العقيدة عن طريق الآيات الكونية المعجزة:

ورد هذا الحوار في سورة واحدة هي سورة الأنعام، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ[2] عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا[3] قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ[4] لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ[5] وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام/٧٥-٧٩].

أي: كما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم كانوا في ضل مبين نريه أيضًا مظاهر قدرتنا وعلمنا وهو الملك العظيم والسلطان الباهر ليكون من الراسخين في اليقين وهو أعلى مراتب الإيمان.

فلما ستر الليل بظلمته كل ضياء، رأى كوكبًا مضيئًا قال: (هذا ربي) وهذا من باب المناظرة لقومه حتى يبدأ من نقطة اتفاق معهم ثم يستدرجهم إلى

---

١) ملكوت: أي ملكهما وزيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة، ومثله الرغبوت والرحبوت أي الملك العظيم.

٢) جن عليه الليل أي ستره بظلمته، ومنه الجنة والجن كل من الستر،

قال الشاعر: ولولا جنان الليل أدرك ركضنا   بذي الرمث والأرض عياض بن ثابت

(فتح القدير ٢/١٣٣).

٣) بازغًا: أي مبتدئًا في الطلوع، والبزغ: الشق كأن يشق بنوره الظلمة.

٤) ذكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله.

٥) حنيفًا: أي مائلاً إلى الدين الحق.

سماع حجته، فأوهمهم أولاً أنه موافق لهم على زعمهم، ثم كرَّ عليهم بالنقض بانيًا دليله على الحس والعقل ليعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله -وفي هذا قدوة للدعاة حتى يعرفوا كيف يبدأوا حوارهم، وأن ينصفوا خصومهم حتى لو كانوا على باطل، فعلى المحاور أن يحكي قول خصمه كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكر عليه فيبطله بالحجة[1] فلما غاب الكوكب قال:

لا أحب عبادة من كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال، فلما رأى القمر طالعًا منتشر الضوء، قال هذا ربي، على الأسلوب المتقدم لفتًا لأنظار قومه، فلما غاب القمر قال: لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين. وفي هذا تعريض يقرب من التصريح على أن قومه على ضلال وقد ترقى هذا التعريض، لأن الخصوم قامت عليهم الحجة بالاستدلال الأول فأنسوا بالقدح في معتقدهم فما عرض عليه السلام بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره وقد انتقل في المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك بين[2].

فلما رأى الشمس قال هذا أكبر من الكوكب والقمر فهي أحق بالعبادة، فلما غابت قال إني بريء مما تشركون، فهنا واجههم بالحقيقة التي أراد أن يصل إليها معهم وهي إبطال عبادة غير الله تعالى فقال: (إني وجهت وجهي للذي فطر

---

1) الكشاف ٢/ ٣١.

2) تفسير المراغي ٣/ ١٧٢.

السموات والأرض حنيفًا) لا كما توجهون أنتم وجوهكم لأصنام نحتموها بأيديكم وعبدتموها بأهوائكم لا بأمر ربكم[1].

ما تقدم يتبين أن إبراهيم عليه السلام حاور وداور وتلطف في الحوار وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه وأحسن طريق، متبرئًا من تلك المعبودات التي جعلوها أربابًا وآلهة مع الله وأتبع تلك البراءة ببيان عقيدة التوحيد.

إثبات العقيدة عن طريق التحدي:

جادل قوم إبراهيم بالتوحيد، وأرادوا أن يقنعوا إبراهيم عليه السلام بصحة اتخاذ الآلهة الأخرى وخوفوه من ضررها وغضبها، قال تعالى:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ[2] أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام/٨٠-٨٣].

جادله قومه وناظروه في شأن التوحيد وجادلوه في آلهتهم وخوفوه بها فأجابهم منكرًا عليهم:

---

١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٢/٨١.

٢) عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: "ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" أخرجه البخاري ومسلم.

قال عليه السلام: كيف يصح منكم جدال في توحيد الله وعبادته، وترك عبادة ما سواه من الآلهة المدعاة وهي لم تخلق شيئًا، ولم تنفع ولم تضر ولا تبصر ولا تسمع ولا تقرب ولا تشفع، وليست قادرة على شيء مما تزعمون، إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيء من المكروه فيكون، أحاط علمه بجميع الأشياء: فإن شاء أن يَسقط عليّ صنم يشجني أو كسف من شهب الكواكب يقتلني فإن ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو الكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره في قدرة الله تعالى وإرادته ولا بجاهه عنده وشفاعته، يا قوم أفلا تعتبرون وتتعظون وتعرضون عن عبادة هذه الأصنام بعد ما أوضحته لكم من أن آلهتكم لا تملك نفعًا ولا ضرًا؟ وكيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها فجعلتموها ندًا لله وهي لا تنفع ولا تضر ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم القادر على كل شيء الذي لا إله إلا هو المحيي المميت الفعال لما يريد، فأينا أحق بالأمن الفريق الذي يعبد الله وحده ويخافه ويرجوه دون غيره أم فريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب فاتخذوا آلهة وأربابًا من دون الله وفي قوله (أي الفريقين) إشارة إلى أن هذه المقابلة عامه لكل موحد ومشرك لا خاصة به وبهم فيجب أن ينتبه لهذا المحاور، وأن يبتعد عن التصريح بخطأ الخصم والذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد، وأن يحترس من تنفير الخصم فلا يستمع إلى قوله – وفي هذا الحوار حجة دامغة مثبتة للحق مزيفة للباطل ولا تكون إلا هبة من الله تعالى يرفع بها درجات من شاء من عباده.

وهكذا نرى أن العقيدة هي أساس بناء المجتمع الإسلامي وأن العقيدة السليمة تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض وتوثق عراهم وترفعهم إلى ذروة الكمال الإنساني، وتعصم دمهم ومالهم وتصحح جميع أعمالهم، لذا استخدم القرآن أسلوب الحوار على مر الدهور والأيام ليكون الإقناع والاقتناع عن طريق

العقل والمنطق للتمييز بين الخطأ والصواب وبين الصالح والطالح من الأمور ولتتاح الفرصة للمناقشة الجادة البناءة التي تحلل أبعاد الموضوع المطروح وتلقي الضوء على جوانبه المختلفة[1].

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

---

1) محمد منير مرسي: تاريخ التربية في الشرق والغرب، عالم الكتب، ١٩٧٧ ص ٢١٦.

الدروس والعبر المستفادة من القصة

١ - وجوب الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له باستعمال المنهج الأمثل في الحوار المبني على وضوح العبارة واللين والهدوء وإيراد الحجج والبراهين والأدلة، وعدم استعجال النتيجة؛ فالهداية تبقى بيد الله العليم الخبير.

٢ - الدعوة إلى الهدى والخير تبدأ بأقرب الناس إلى الداعي.

٣ - مجاراة المحاور لخصمه في بداية الحوار، ثم الكرُّ عليه وإبطال حجته بما أوتي من براهين وقوة إقناع، مع تمسكه بطرف حبل الحوار، ولا يلجئ الخصم إلى قطعه.

٤ - على المحاور أن يكون ذكيًّا، سريع البديهة، وأن يستغل نقاط ضعف خصمه لينفذ إليه من خلالها.

٥ - على الدعاة أن يكونوا على بصيرة في حوارهم مع خصومهم، وأن يتبرأوا من التعصب والتعسف.

٦ - واجب الدعاة البيان والحوار على طريقة القرآن.

٧ - من استحكم في قلبه داء التقليد لا تنفعه أي حجة أو برهان.

٨ - على المحاور أن يحسن خلقه ولو مع الكفار.

٩ - جواز حوار المجادل لإثبات العقيدة الصحيحة السليمة مهما كان مركزه ومنزلته.

١٠ - في إبراهيم عليه السلام قدوة حسنة للدعاة حيث أنصف خصومه حتى ولو كانوا على باطل.

١١ - على المحاور أن يبتعد عن التصريح بخطأ الخصم حتى لا يتحول الحوار إلى لجاج وعناد.

١٢ - العقيدة هي أساس بناء المجتمع الإسلامي.

١٣ - العقيدة السليمة تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض وتوثق عراهم وترفعهم إلى ذروة الكمال الإنساني، وتعصم دمهم ومالهم وتصحح جميع أعمالهم.

****

****

وقفة وتأمل

من خلال مطالعتنا لقصص الأنبياء ووقوفنا على الدروس والعبر المستقاة منها، لا بدّ لنا من وقفة وتأمل، فهناك سؤال يطرح نفسه: إن ما جرى من وقائع وأحداث كان في العصور الغابرة، وقد تغيرت الظروف والمعطيات، فنحن نعيش في عصر يختلف كليًا عن تلك العصور، فما هو دور الدعاة والوعاظ في عصرنا الحاضر وقد اختلفت الأزمنة والأماكن والظروف، وتباينت الثقافات، واختلفت المفاهيم، وتنوعت المبادئ والمعتقدات، وتوزعت على خريطة العالم، كما تنوعت وتعددت وسائل المخاطبة والإعلام بسبب التقدم التكنولوجي الهائل الذي شمل كل أنحاء العالم،وأصبح كل معتقد من خلاله يسعى لإثبات وجوده ويعمل على إلغاء وتغييب المعتقدات الأخرى؟

حقًا إن الوضع صعب جدا، ويحتاج إلى تروٍ وتأمل: فنحن الآن في عصر قد تجاوز فكرة عبادة الأصنام والأوثان والشمس والقمر والنار.... فالمسلمون الآن الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يعدون بالملايين وينتشرون في مختلف بقاع العالم ومن مختلف الألوان والأجناس والجنسيات ويعيشون جنبًا إلى جنب مع أصحاب دينين سماويين: اليهودي والمسيحي ومعتقدات أخرى كالبوذية والهندوسية وشعوب لا دين لها ولا معتقد. فما هو دور المسلمين يا ترى الذين قال الله فيهم: كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله في هذا الخضم الواسع المتناقض؟ فهل دورهم ينحصر في إثبات أي من المذاهب هو الأصح، ونحن الأن نعيش بداية صراع بين المذاهب وقد تجند علماؤها مستغلين القنوات الفضائية والتي تجد لها آذانًا صاغية من أتباع هذا المذهب أو ذاك؟ أو ينحصر دورهم في الرد على أتباع الأديان الأخرى وهدفهم

تشويه الدين الإسلامي من خلال إبراز التناقضات في القرآن الكريم –على حد زعمهم- وهي موجهة بالدرجة الأولى لمسلمي أوروبا الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا؟ أم ينحصر في وقف الهجمة اليهودية لحض الحكومات الإسلامية على حذف بعض الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد وتدعو إلى تمجيد الإسلام وإبرازه على أنه أصح الأديان؟ وهدفهم من وراء ذلك خلق جيل بعيد كل البعد عن مبادئ الإسلام لا يفقه منه شيئًا ليسير بالتالي في التيار الذي يريدون له.

هذا غيض من فيض من واقع المسلمين الآن. حقًا إنه واقع صعب ومرير وفي غاية التعقيد رغم الصحوة التي بدأنا نعيشها بفضل جهود علماء أجلاء في شتى بقاع العالم الذين استغلوا المحطات الفضائية والإنترنت وأنشأوا المواقع لتكون لهم وسيلة ومنفذًا لتحقيق غرضهم النبيل بإعطاء صورة واضحة عن الإسلام ورد التهم عنه بما لحقه من شوائب ممن يضمرون له العداء ويتمنون له الزوال.

ولكن هذا الجهد سيبقى ناقصًا ولن يأتي أكله كما نرجو ونتمنى، ما لم نسلح أنفسنا بحفظ القرآن وفهمه والعمل بما جاء به، وما لم نقدمه للعالم بطريقة مدروسة، والعمل على تكوين نخب من الأشخاص المؤمنين المخلصين المؤهلين دينيًا وثقافيًا بتدريسهم معتقدات الآخرين وتدريبهم على أساليب الحوار، وبذلك يكونون مؤهلين ويملكون المقدرة على تقديم الإسلام للعالم بصورة لائقة وبنفس الوقت هم قادرون على ردّ التهم عنه وترغيب الناس للدخول فيه.

وبهذه المناسبة تحضرني المناظرة بين الداعية أحمد ديدات والقسيس سويغارت الذي استطاع بفضل إيمانه وإخلاصه وثقته بنفسه وفهمه للدين الإسلامي واطلاعه على معتقد الآخر وامتلاكه لناصية الحوار التي تتمثل باستخدام لغةالخصم ثم تحليه باللين والهدوء وعدم الغضب أن يتفوق على خصمه وتأتي في النهاية الثمار المرجوة من هذه المناظرة.

فما وجدناه في منهج الداعية أحمد ديدات هو نسخة طبق الأصل لمنهج الأنبياء في تأدية رسالتهم، وكل ما نرجوه ونأمله أن تتكرر هذه الظاهرة التي يبدو أنها حالة منفردة.

****

****

الفصل الثاني

الحوار في الأخلاق

تمهيد:

المبحث الأول: حوار لوط (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثاني: حوار يوسف (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثالث: حوار شعيب (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الرابع: الحوار الأخلاقي في قصة قارون (عليه السلام)

الفصل الثاني
الحوار في الأخلاق

تمهيد

الخلق لغة "السجية والمُروءة والطبع والدين"(١)

والخلق اصطلاحًا: "هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا روية فإن كانت الهيئة، بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا"(٢).

والهيئة إذا ما ربيت على إيثار الفضيلة والحق وحب المعروف والرغبة في الخير، وروضت على حب الجميل وكراهة القبيح، يصبح ذلك طبعًا لها تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة ودون تكلف، ويسمى هذا الخلق الحسن، نعتت تلك الأفعال الجميلة الصادرة عنه بدون تكلف بالأخلاق الحسنة وذلك كخلق الحلم والأناة والصبر والتحمل والكرم والشجاعة والعدل والإحسان وما إلى ذلك من الفضائل الخلقية والكمالات النفسية وهذا ما يدعو إليه القرآن ويتخذ الحوار طريقًا له.

كما أن الهيئة إذا أهملت فلم تهذب التهذيب اللائق بها ولم يعن بتنمية عناصر الخير الكامنة فيها أو ربت تربية سيئة حتى أصبح القبيح محبوبًا لها والجميل مكروهًا عندها، وصارت الرذائل والنقائص من الأقوال تصدر عنها

---

١) القاموس المحيط.

٢) إحياء علوم الدين ٥٣/٢.

بدون تكلف ، قيل فيها خلق سيئ، وسميت تلك الأقوال والأفعال الذميمة التي تصدر عنها بالأخلاق السيئة وذلك كالخيانة والكذب والجزع والطمع والجفاء والغلظة والفحش والبذاء وما إليها[1] وهذا ما ينهى عنه القرآن ويتخذ الحوار طريقاً للتحذير منه.

وأخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته، وعقيدته فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يعطي الأخلاق نفسها روح الثبات والقوة والشمول.

والأخلاق في القرآن ترتبط بالحكمة أيما ارتباط، أي تضع كل شيء في موضعه، فالشجاعة على الضعيف جبن وظلم، ومن غير قانون تسلط وبغي ولغير غاية تهور وحماقة.

فكل خلق في القرآن الكريم يرتبط بغايته التي إليها يقصد وهي الإيمان بالله واليوم الآخر وهذه الغاية هي التي تحدد الباعث على العمل فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ أول حياتهم ومنذ بداية نشأتهم، وبعض أخلاق الناس مكتسبة من البيئة الطبيعية او من البيئة الاجتماعية، ومن توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك[2].

---

١) منهاج المسلم: أبو بكر الجزائري /١٥.

٢) الأخلاق الإسلامية: عبدالرحمن حنبكة: ١٨٣/١.

ولا نريد أن ندخل في اختلاف المفكرين والفلاسفة في شأن الأخلاق والتي خلاصتها، هل الإنسان خير بطبعه والشر عارض أم أن الإنسان شرير بطبعه والخير طارئ عليه أم أن الإنسان خلق مستعدًا للخير والشر جميعًا[1].

فالانغماس في الجماعة، من شأنه أن ينقل من الجماعة إلى الفرد ما تتسم به الجماعة من أخلاق عن طريق السراية والعدوى التي تبدأ بالمحاكاة والتقليد والرغبة بالاندماج والموافقة وعدم المخالفة والشذوذ، وحينما ينخرط في سلك جماعة من الجماعات يجد أنه مدفوع بقوة ضاغطة لالتزام طريقتها، ثم بتعاطفه معها يستحسن الأشياء التي يراها مستحسنة لديها وآخذة بها، ويستقبح الأشياء التي يراها مستقبحة لديها ونافرة منها، وبذلك يكتسب الفرد من دون أن يشعر أخلاق الجماعة التي ينتسب إليها وينخرط فيها، والبيئات المنحرفة تعمل على تدريب من ينخرط فيها على كل رذيلة من الرذائل التي هي مدنسة بها وعلى كل قبيحة من القبائح المنتشرة بين أفرادها، كما تكون بؤرة ملائمة لتزايد الرذائل والقبائح حتى تفسد المفاهيم العامة، فتكثر الجرائم بين الأفراد وتنتشر السيئات والانحرافات في السلوك[2]، ولهذا الانحراف أسباب كثيرة، ترجع معظمها إلى الأنانية الذاتية المفرطة، وغلبة الأهواء والشهوات، وترجع بعضها إلى خبث النفس وكراهيتها للحق ونزغاتها الشيطانية الشريرة[3]، والكافرون يكرهون الحق لأنه يخالف أهواءهم وشهواتهم، وإذا كرهوا الحق كرهوا الداعين إليه والناصحين به، وكان من الطبيعي منهم أن يحبوا الباطل لموافقته لأهوائهم

---

1) دراسات إسلامية، عبدالله دراز ٩١ و٩٢، دعوة الإسلام سيد سابق /٦٥.

2) الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق / ٢٠٠ -٢٠٢ بتصرف.

3) المرجع السابق / ٤٧٣.

وشهواتهم ويؤثروا العمى على الهدى وهذا ما سنبينه في هذا الفصل بإذن الله. وقد تم تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحـث الأول: حوار لوط عليه السلام وجدل قومه

المبحث الثاني: حوار يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

المبحث الثالث: حوار شعيب عليه السلام وجدل قومه

المبحث الرابع: الحوار الأخلاقي في قصة قارون

****

****



الحوار في الأخلاق

حوار لوط [عليه السلام] وجدل قومه

المبحث الأول

حوار لوط عليه السلام وجدل قومه

النهي عن الفحشاء:

ذكر حوار لوط[1] عليه السلام وجدل قومه[2] في أربعة مواضع:

الموضع الأول في سورة الأعراف وأطراف الحوار هم لوط عليه السلام وقومه وموضوع المحاورة: النهي عن الفحشاء.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف/٨٠-٨١].

أرسل لله لوطًا إلى أهل سدوم بقرب بيت المقدس فوجدهم يفعلون فاحشة شديدة الشناعة وهي اللواط ولم يكن في أمة من الأمم.

قال لوط لقومه: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من العالمين فأنتم قوم عادتهم الإسراف وتجوز الحد في كل شيء، أسرفتم في باب قضاء الشهوة وتجاوزتم ما عين لكم إلى غيره من الحلال إلى الحرام.

إنكم لقوم تأتون ما حرم الله عليكم وتعصونه بفعلكم هذا المتمادي في القبح أتأتون الفاحشة للاشتهاء؟ لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة، من غير داعٍ آخر فإنه من فعل بعض البهائم وأنه لا داعي له من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه.

فماذا كان جواب قوم لوط؟:

---

١) هو لوط بن هاران – أخي إبراهيم – بن تارح، آمن بإبراهيم عليه السلام واهتدى بهديه.

٢) سدوم: منطقة تقع قرب البحر الميت في الأردن.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف/٨٢].

قال قوم لوط: أخرجوا لوطًا وأهله من بلدكم لأنهم يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار[1] فهم يطلبون الطهارة من الفواحش —وهذا الجواب للوط ينبعث من نفوس خبيثة وفطر منكوسة.

فنجّى الله لوطًا وابنتيه وسائر من آمن به إلا امرأته كانت من الباقين في ديارهم الهالكين فيها وأرسل الله عليهم الحجارة إرسال المطر.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا[2] عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف/٨٣-٨٤].

علاج الشذوذ:

والموضع الثاني من حوار لوط عليه السلام جاء في سورة هود[3] وأطراف الحوار لوط عليه السلام والملائكة، وقومه، وموضوع الحوار وهدفه الانحراف والشذوذ وعلاجه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا[4] لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ

---

١) الطبري: ٢٣٧/٨.

٢) تستخدم مطر في الرحمة وأمطر في العذاب.

٣) هود: ٧٧ -٨٣.

٤) عن السدي قال: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان، اسم الكبرى ريثا، والصغرى زغرتا، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ قالت: نعم، فمكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، وفرقت=

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ[1] فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود/٧٧-٧٨].

لما جاءت الملائكة لوطًا ساءه مجيئهم وضاق بهم ذرعًا وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله في حال مجيئهم وعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة، وخاف عليهم فضاق من أجل ذلك ذرعًا وقال: هذا يوم شديد فجاء قومه يستحثون إليه يرعدون مع سرعة المشي مما بهم من طلب الفاحشة، ومن قبل مجيئهم إلى لوط، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم مما يدل على أنهم كانوا منهمكين في عمل الفواحش، تعودوا عليها واستمروا حتى لم يخجلوا من قباحتها، ولم يستحوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين.

فقال لهم لوط لما جاؤوا يراودونه عن ضيفه: هؤلاء يا قوم بناتي -يعني نساء أمته - فانكحوهن فهن أطهر لكم وأحل وأنزه، واخشوا الله واحذروا عقابه في إتيانكم الفاحشة التي تأتونها وتطلبونها، ولا تذلوني بأن تركبوا في ضيفي ما يكرهون أن تركبوه منهم، فتجلبوا عليّ العار، أليس منك رجل ذو رشد ينهى من أراد ركوب الفاحشة من ضيفي فيحول بينهم وبين ذلك.

ولكنهم كانوا في منتهى الوقاحة:

=عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضف الرجال، فجاء بهم، فلم يعلم أحد إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها قالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه (الطبري ١٢/٨١ و٨٢ وابن كثير ٢/٢٢٧)

١) تخزون: أخزاه أهانه وأذله – قال حسان:

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود/٧٩].

قال قومه: يا لوط لقد علمت ما لنا في بناتك حق لأنهن لسن لنا أزواجًا، وليس لنا فيهن من شهوة ولا حاجة – قيل إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم –.

ويزداد الأمر شدة على لوط:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود/ ٨٠][١].

قال لوط عليه السلام لقومه: لو أن لي أنصارًا تنصرني عليكم وأعوانًا تعينني أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي ولنكلت بكم ومنعتكم.

ثم ينتقل الحوار بين لوط والملائكة:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود/٨١].

قالت الملائكة: يا لوط إنا رسل ربك، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم لن يصلوا إليك، وإلى ضيفك بمكروه. فهون عليك فاخرج أنت وأهلك ببقية من الليل ولا يلتفت منكم أحد[٢] إلا امرأتك فإنه مصيبها ما أصاب قومك من العذاب إن

---

١) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "رحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، ما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه" والثروة الكثرة والمنعة، ويريد الرسول ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده فهو ركنه الشديد، وسنده القوي (الفتح الكبير ١٣٤/٢).

٢) لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم.

موعد عذابهم الصبح[1] -فاستبطأ ذلك منهم لوط، وقال لهم: بل عجلوا العذاب- فقالوا: عند الصبح نزول العذاب بهم. أليس وقت الصبح قريبًا؟

ثم ذكر عذابهم:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[2] مَّنضُودٍ[3] ۝ مُّسَوَّمَةً[4] عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود/ ٨٢-٨٣].

فلما جاء أمر الله بالعذاب[5] وقضى عليهم بالهلاك جعل عالي قراها سافلها قيل: أمر الله تعالى جبريل فرفعها بجناحه ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من طين معلمة، قيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمي به.

وفي عرض بناته عليه السلام على قومه ليتزوجوا منهم بعد أن رفض ذلك سابقًا يدل على اهتمامه بوقاية ضيفه وذلك غاية في المروءة والكرم، وفي هذا أيضًا سد لباب الفتنة -والذي ينبغي أن يحرص عليه المحاور- وحسن دفع لقومه من أول الأمر، لأنه إذا رضي البعض بهذا العرض انقطع عرق النزاع، واندفع الشر الكثير بالخير اليسير.

---

١) جعل الصبح ميقاتًا لهلاكهم، لكون النفوس فيه أسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم.

٢) السجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره.

٣) منضود: أي أنه نضد بعضه فوق بعض، يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه فوق بعض.

٤) المسومة: المعلمة أي التي لها علامة.

٥) عن مجاهد قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على حوافي جناحه بما فيها ثم صعد بهم إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل.

استنكار الخطيئة:

والموضع الثالث من حوار نبي الله لوط جاء في سورة الشعراء[1].

وأطراف الحوار لوط عليه السلام وقومه وموضوعه استنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ.

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[2]﴾ [الشعراء/١٦٠-١٦٦].

قال لوط عليه السلام لقومه: أيها القوم إني لكم رسول من ربكم أمين على وحيه، وتبليغ رسالته فاتقوا الله في أنفسكم وأطيعوني فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد، وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي وحواركم جزاء ولا ثوابًا، ما جزائي على حواري معكم ونصحي لكم وتبليغ رسالات الله إليكم إلا على رب العالمين، أتنكحون الذكران في أدبارهم وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهن فأحله لكم إنكم قوم تتجاوزون ما أباح لكم ربكم.

---

١) الشعراء: ١٦٠ -١٧٥.

٢) عادون: متجاوزون الحد في جميع المعاصي.

فأجابوه مجادلين:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ[1]﴾ [الشعراء/١٦٧].

قال قوم لوط لنبيهم: لئن لم تكف يا لوط عن نهينا عن إتيان الذكران لنخرجنك من بين أظهرنا وبلدنا.

فجاوبهم عليه السلام:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ[2] ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء/١٦٨-١٧٥]

قال لوط عليه السلام: إني لعملكم من المبغضين المنكرين لفعله لذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى ربه فاستغاث به وطلب منه أن ينجيه من عقوبته إياهم على ما يعملون فنجاه الله إلا امرأته العجوز التي دلت قومها على الأضياف وأهلك الله الآخرين من قوم لوط وأرسل عليهم حجارة من سجيل فبئس ذلك المطر، إن في هلاكهم لعبرة.

---

١) أي لتكونن من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه، وكما يكون حال الظلمة إذا أخرجوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد الهجرة (الكشاف: ١٢٥/٣).

٢) الغابرين: صفة لها كأنه قيل إلا عجوزًا غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم، فيكون المعنى إلا عجوزًا مقدرًا غبورها في الهلاك والعذاب (الكشاف ١٢٥/٣).

التهديد بالطرد:

والموضع الرابع من حوار نبي الله لوط مع قومه كان في سورة النمل[1].

وأطراف الحوار لوط عليه السلام وقومه وموضوع الحوار: هم قوم لوط بإخراجه لإنكاره عليهم الشذوذ.

قال تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ[2] ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل/٥٤-٥٥].

قال لوط لقومه: يا قوم أتأتون الفعلة المتناهية في القبح والشناعة لم يسبقكم عليها أحد، إنكم تأتون الرجال متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك، إنكم قوم سفهاء جهلة بحق الله عليكم.

فجاوبه قومه استهزاءً:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل/٥٦].

قال بعضهم لبعض: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون عما نفعله من إتيان الذكران في أدبارهم.

---

١) النمل: ٥٤ -٥٨.

٢) تبصرون: من بصر القلب وهو العلم فإنه يقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، أي: والحال أنكم تعلمون فحشها علمًا يقينيًا، وتعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح من غيره، أو من نظر العين أي: وأنتم تبصرونها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها ولا يستترون فيكون أفحش (تنوير الأذهان ١٢٠/٣) وكانوا يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وانهماكًا في المعصية (الكشاف ١٥٣/٢).

فكانت نتيجتهم الهلاك ونجّى الله لوطًا وأهله إلا امرأته:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل/٥٧-٥٨].

****

الدروس والعبر المستفادة من القصة

١ - الشذوذ الجنسي (اللواط) مرض عضال، ينقل الآدمي من الإنسانية إلى البهيمية.

٢ - على الدعاة والوعاظ والأطباء والعلماء تقع مسؤولية التنفير منه، والوقاية والعلاج.

٣ - إذا استفحل هذا الداء وعمَّ وانتشر أصبح نذيرًا بالهلاك.

٤ - عقوبة اللواط كانت من أشد العقوبات التي أوقعها الله بالبشر.

٥ - من المروءة والكرم الاهتمام بالضعيف ووقايته من الأذى.

٦ - يجب أن يحرص المحاور على سد باب الفتنة.

****

****



الحوار في الأخلاق

حوار يوسف (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثاني

حوار يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

الحوار الأخلاقي في قصة يوسف عليه السلام ملفت للنظر لأنه لم يكرر في سورة أخرى مثل بقية الحوارات، ومعنى ذلك أن المحاورة في القرآن لم تأت عرضًا، وإنما هي غرض أساسي من أغراض القرآن وأسلوب من أساليبه والتي يهدف منها تحقيق أغراضه الشاملة لكل جوانب الإصلاح عامة سواء كانت فردية أم جماعية، وهذا يجعل للحوار طبيعة حركية وتضفي عليه أداءً فنيًا صادقًا جميلاً، لبيان طبيعة الشهوة في كل من الرجل والمرأة، وتحركها عند اجتماعهما مهما كانت درجة كل منهما ووضعه الاجتماعي، فإذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما، وفي هذا بيان وتوضيح للحقائق الخاصة بطبيعة الأنثى مع الذكر وأن هذه الطبيعة إذا تركت وشأنها أفسدت كل بيت وكل مجتمع.

مراودة يوسف عن نفسه:

والحوار الدائر كان أطرافه يوسف عليه السلام وامرأة العزيز والعزيز والشاهد، وموضوعه مراودة يوسف عن نفسه ودفاعه عن نفسه التهمة التي ألصقت به زورًا وبهتانًا.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ[1] ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[2]﴾ [يوسف/٢٣].

وخادعت امرأة العزيز يوسف بلطف ورفق ولين وراوغته وطلبت منه أن يضاجعها بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب وقالت له: هلمَّ وأقبل وأسرع إلى الفراش.

فجاوبها:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ[3] ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ

---

١) المراودة: مفاعلة من راد يرود إذ جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التحيل لمواقعته إياها (الكشاف ٢/٣٠٠).

٢) اختلفت القراءات في ذلك: قرأ أهل البصرة والكوفة (هَيْتَ لك) بمعنى: هلم لك وادن واقترب كما قال الشاعر لعلي بن أبي طالب ﷺ:

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

يعني تعال واقرب.

وقرأ جماعة من المتقدمين (هِئْتُ لك) بكسر الهاء وضم التاء والهمزة، بمعنى تهيأت لك (الطبري ١٢/١٧٨ -١٨١).

٣) وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك!

قال: في الرحم صورني ربي.

قالت: يا يوسف! ما أحسن شعرك!

قال: هو أول شيء يبلى مني في قبري.

قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك!=

وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ[1] وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف/٢٣، ٢٥].

قال يوسف: أعوذ بالله وألتجئ إليه من فعل السوء، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين، إن سيدي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حرمه، فإنه لا يفلح ولا يظفر الظالمون بمطالبهم، ولقد همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف، وهم بها لولا حفظ الله ورعايته له وعصمته له فثبته الله على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء وصرف عنه المنكر والفجور لأنه من الذين أخلصهم الله لطاعته، واصطفاهم لوحيه ورسالته، فاستبقا الباب، يوسف يفر من أمامها طالبًا النجاة وهي تتبعه تريد إرجاعه حتى لا يفلت من يدها، فشقت ثوبه من خلف، ووجدا العزيز عند الباب فجأة..

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف/٢٥].

قالت امرأة العزيز: ما جزاء من أراد بأهلك شيئًا يسوؤك إلا السجن أو الضرب المؤلم الموجع الذي يؤدبه ويلزمه الطاعة.

=قال: بهما أنظر إلى ربي.

قالت: يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟!

قال: أريد بذلك القرب من ربي.

قالت: يا يوسف! القيطون فرشته لك –أي المخدع - قم فاقض حاجتي.

قال: إذا يذهب من الجنة نصيبي.

(هذا الحوار وهذه المراجعة ذكرها القرطبي ١٦٥/٩).

١) "وقدت قميصه من دبر": أي جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله، والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضًا (فتح القدير ١٨/٣).

فأجاب عليه السلام:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف/٢٦].

قال يوسف عليه السلام: هي التي دعتني إلى مقارنة الفاحشة فامتنعت وفررت.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ(١) مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢)﴾ [يوسف/٢٦-٢٩].

وحكم قريب لها إن كان ثوبه قد شق من أمام فهي صادقة وهو كاذب وإن كان ثوبه قد شق من الوراء فهي كاذبة وهو صادق، فلما رأى زوجها أن الثوب قد شق من الوراء قال: إن هذا الأمر من مكر واحتيال النساء فهو سنة عامة فيهن، وكيد النساء عظيم لا قبل للرجال به يا يوسف أعرض عن ذكر هذا ولا

---

١) اختلف أهل العلم في صفة الشاهد، فقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك: إنه كان صبيًا في المهد، عن ابن عباس قال: تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه السلام) وقال آخرون كان رجلاً ذا لحية، روي ذلك عن عكرمة وعن مجاهد وعن السدي، عن قتادة قال: كان رجل حكيم من أهلها. وقال آخرون: إنما عني بالشاهد القميص المقدود. روي ذلك عن مجاهد وقد رجح الطبري قول من قال: كان صبيًا في المهد للخبر الذي ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢) يقال خطئ إذا أذنب متعمدًا، وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبًا للذكور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلاً حليمًا، وروي أنه كان قليل الغيرة (الكشاف ٢/ ٣١٦).

تتحدث به وأنت أيتها المرأة توبي إلى ربك واستغفري لذنبك إنك كنت من القوم المتعمدين للذنب.

لوم امرأة العزيز:

والمحاورة كانت بين جماعة من النساء في مصر وبين امرأة العزيز وموضوع المحاورة لوم امرأة العزيز عما راودت به فتاها عن نفسه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ[1] إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف/٣٠].

قالت جماعة من النساء في المدينة: امرأة العزيز تطلب من عبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها فيه، قد بلغ حبها له شغاف قلبها فملك عليها أمرها، إنا لنعلم أنها في ضلال واضح عن طريق الرشد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ[2] أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ﴾ [يوسف/٣١].

فلما سمعت بحديثهن وما دار بينهن خفية أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة وهيأت لهن ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد وقدمت لهن الطعام والفاكهة

---

١) أي وصل حب يوسف إلى شغاف قلبها، فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وشغاف القلب، حجابه وغلافه الذي هو فيه، وإياه عنى النابغة الذبياني بقوله:

وقد حال همٌّ دون ذلك داخل دخول شغاف تبتغيه الأصابع

الطبري (١٢/١٩٨).

٢) بمكرهن: باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني، وسمي الاغتياب مكرًا لأنه خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره (الكشاف ٢/٣١٦).

وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به.. وقالت ليوسف وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه والسكاكين في أيديهن: أخرج عليهن، فلم يشعرن إلا ويوسف يمر من بينهن:

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ[1] مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف/٣١].

فلما خرج عليهن ورأينه أعظمنه ودهشن بجماله البارع وذهلن فجرحن أيديهن بدلاً من تقطيع الفاكهة وذلك لفرط الدهشة المفاجئة، وقلن: تنزه الله عن صفات العجز وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله فهو ليس من البشر ما هو إلا ملك من الملائكة[2].

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ[3] وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[يوسف/٣٢].

---

١) أصله حاشا، حذفت الألف الأخيرة تخفيفًا، وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول أساء القوم حاشا زيد، توضع موضع التنزيه والبراءة، فمعناه تنزيه الله وبراءة الله (تنوير الأذهان ٢/٢١٦).

٢) قصرنه على الملكية مع علمهن أنه بشر، لأنه ثبت في النفوس أنه لا أكمل ولا أحسن خلقًا من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

(تنوير الأذهان ٢/٢١٦).

٣) أصل اللوم: الوصف بالقبيح.

قالت امرأة العزيز: هذا الذي رأيتموه هو الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في لومي وقلتن ما قلتن، ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه امتناعًا شديدًا، ولئن لم يفعل ما آمره به، ليسجنن وليكونن من المقهورين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ[1] وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[يوسف/٣٣-٣٥].

قال يوسف عليه السلام: رب السجن أحب إلى نفسي مما يدعونني إليه أولئك النسوة من اقتراف الفاحشة، وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن أمل إلى إجابتهن وموافقتهن وأكن من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات، فأجاب الله دعاءه إنه هو السميع لدعاء عباده عليم بأحوالهم. ثم ظهر لهم بعد ذلك أن الحكمة في سجنه لإخفاء ذكره وكف ألسنة الناس عنها في أمره، ولا يبقى لها ذكر بين الناس.

عن أنس قال: أوحى إلى يوسف من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك؟

قال: أنت يا رب.

قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه؟

---

١) أصب إليهن: أي أميل إليهن، وأتابعهن على ما يردن مني، ويهوين، من قول القائل: صبا فلان إلى كذا، ومنه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبي وهند مثلها يصبي

قال: أنت يا رب.

قال: من استنقذك من المرأة إذ همت بك.

قال: أنت يا رب.

قال: فمالك نسيتني وذكرت آدميًا؟

قال: جزعًا وكلمة تكلم بها لساني.

قال: فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين(١).

عاقبة الصبر:

ورأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، جمع من أجلها السحرة والكهنة والمنجمين، وسألهم عن تأويل ما رأى، فعجزوا... وكان تعبيرها عند يوسف عليه السلام فكانت سببًا في طلب الملك له.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[يوسف/٥٠].

فلما رجع الساقي إلى الملك وأبلغه بتأويل يوسف للرؤيا قال الملك: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي وأعرف درجة عقله وأعلم تفضيل رأيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(٢) [يوسف/٥٠].

---

١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، (فتح القدير ٣/٣٠).

٢) عن النبي ﷺ قال: "لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين=

فلما جاء رسول الملك ليوسف عليه السلام وبلغه أمر الملك قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك وسله عن قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حبست ودخلت السجن؟ فلا أود أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت من أجلها وطال مكثي في السجن دون جرم إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبرن من كيد لي فهو الذي صرف عني كيدهن.

فجمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف/٥١].

قال الملك لهن: ما شأنكن الذي حملكن إلى دعوة يوسف إلى مقارنة الفاحشة، فهل رأيتن منه استجابة.

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف/٥١].

قالت النسوة: معاذ الله ما علمنا عليه من سوء يشينه.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ(١) أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ

=أتاه الرسول، فقال ارجع إلى ربك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليمًا ذا أناة) (الكشاف ٢/٣٢٥).

١) أصل حصحص: حصّ، ولكن قيل حصحص، كما قيل: فكبكبوا في كبوا، وقيل كفكف في كف، وذرذر، في ذرّ، وأصل الحصّ: استئصال الشيء يقال منه: حصّ شعره: إذا استأصله جزًا، وإنما أريد في هذا الموضع: حصحص الحق: ذهب الباطل والكذب، فانقطع، وتبين الحق فظهر (القرطبي ٩/٢٠٨)، (فتح القدير ٣/٣٤).

ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/٥١-٥٣].

قالت امرأة العزيز: الآن ظهر وانكشف الحق وبان بعد أن كان خفيًا، أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي، فاستعصم وأعرض عني وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله: "**هي راودتني عن نفسي**" ذلك الاعتراف مني بالحق له والشهادة بالصدق الذي علمته منه ليعلم أني لم أخنه بالغيب منذ سجن إلى الآن، فلم أنل من أمانته أو أطعن في شرفه وعفته، والله لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه وتكون عاقبته الفضيحة والنكال، وما أبرئ نفسي من دعوى عدم خيانتي إياه بالغيب إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية والأهواء النفسية إلا من رحمه الله فصرف عنه السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام – إن ربي عظيم المغفرة واسع الرحمة(١).





١) تفسير المراغي ١٥٨/١٢ و١٥٩ – ٣/١٣ و٤ وقيل هذا من كلام يوسف عليه السلام.

الدروس والعبر المستفادة من القصة

١ - إغراء المرأة للرجل من أسباب ارتكاب جريمة الزنا –إلا من عصم الله -.

٢ - موقف المرء من الإغراء يتوقف على درجة إيمانه وتقواه.

٣ - الإغراء ابتلاء للعباد.

٤ - على المظلوم أن يصبر حتى يأتي الله بالفرج.

٥ - الإكثار من الدعاء لتجنب الوقوع في ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

٦ - الحوار في القرآن الكريم جاء من أجل تحقيق كل جوانب الإصلاح.

٧ - إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما.

٨ - لا يفلح ولا يظفر الظالمون بمطالبهم.

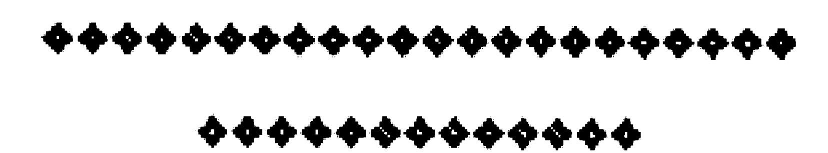
٩ - مكر واحتيال النساء سنّة عامة فيهن، وكيد النساء عظيم لا قبل للرجال به.

١٠ - من يستجب إلى ما تدعو إليه النساء يكن من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات.

١١ - كان يوسف عليه السلام كريمًا صابرًا حليمًا ذا أناة.

١٢ - إن الله لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه، وتكون عاقبته الفضيحة والنكال.

١٣ - النفس البشرية كثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية والأهواء النفسية.





الحوار في الأخلاق

حوار شعيب (عليه السلام) وجدل قومه

المبحث الثالث

حوار شعيب عليه السلام وجدل قومه

النهي عن التطفيف في الكيل والميزان:

ذكر حوار سيدنا شعيب عليه السلام[1] وجدل قومه[2] في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول في سورة الأعراف وأطراف الحوار هم شعيب عليه السلام وقومه وموضوعه: النهي عن التطفيف في الكيل والميزان.

فلقد أرسل الله إلى أهل مدين أخاهم شعيبًا يدعوهم إلى طاعة الله ويحاورهم ليقنعهم بذلك حتى ينتهوا إلى أمره ويتركوا الفساد في الأرض والصد عن سبيل الله..

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

---

١) شعيب عليه السلام: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين واسمه بالسريانية بثروق، كان يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وبراعته في إقامة الحجة عليهم ودحض حججهم وهذا يؤكد أنه كان عليه السلام محاورًا من الطراز الأول، عن يعقوب بن أبي مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيبًا قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة) فتح القدير ٢/٢٢٧.

٢) قوم شعيب هم: شعب مدين بن إبراهيم، نزلوا بلاد الحجاز – مما يلي الشام، وكانوا في عيش رافع، وهم أهل تجارة عبدوا غير الله تعالى وفعلوا الشرور، فكانوا يطففون المكيال والميزان ويماكسون الناس في سلعهم إرادة شرائها بثمن بخس.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ[1] صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ[2] وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف/٨٥-٨٧].

فقال لهم شعيب: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له مالكم من إله يستوجب عليكم العبادة، غير الإله الذي خلقكم وبيده سبحانه نفعكم وضركم، قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول وصدق ما أدعوكم إليه، فأتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به، ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها، ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، فإن امتثلتم وأطعتم فهو خير لكم في عاجل دنياكم، وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة، ولا تجلسوا في كل طريق تهددون من آمن بالقتل وتخوفونهم أن يأتوا إليّ واذكروا نعمة الله عليكم بأن كثر جماعتكم بعد ان كنتم قليلاً، فاتقوا عقوبة الله بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وإن كانت جماعة منكم وفرقة آمنوا وصدقوا فأخلصوا العبادة لله وتركوا معاصيه وتركوا ظلم الناس وبخسهم في المكاييل والموازين، وجماعة أخرى لم يؤمنوا ولم يصدقوا ولم يتبعوني، فاحتبسوا على قضاء الله

---

١) بكل: الباء للإلصاق أو المصاحبة، لأن القعود ملصق بالمكان.

٢) قيل: كانوا يجلسون على المرصد فيقولون لمن يريد شعيبًا: إنه كذاب لا يفتنك عن دينك.

الفاصل بيننا وبينكم فالله خير من يفصل وأعدل من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد ولا محاباة لأحد[1].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف/٨٨].

قال الأشراف المستكبرون: والله لنخرجنك وأتباعك من قريتنا بغضًا لكم، ودفعًا لفتنتكم، أو العود إلى ديننا، وغلبوا في الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبًا لم يكن في ملتهم قط[2].

فجاوبهم شعيب عليه السلام:

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ[3] رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ[4] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف/٨٨-٨٩].

---

١) الطبري: ٢٣٩/٨ - ٢٤٠.

٢) الجلالين، ص ٢٠٦.

٣) أي أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك فالاستثناء منقطع وقيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل، كما في قوله –وما توفيقي إلا بالله - (فتح القدير ٢٢٥/٢).

٤) عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول: تعال: أفاتحك بمعنى أقاضيك، وقال السدي: الفتح القضاء لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء قال: تعال أفاتحك.

قال شعيب عليه السلام مجيبًا لهم: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، فليس لكم ذلك ولا يصح لكم أن تكرهونا على ما لا نريد، فإن المكره لا اختيار له، ولا تعد موافقته موافقة ولا عودة إلى ملتكم مكرهًا عودًا[1] وما يصح وما يستقيم لنا أن نعود في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا حالة مشيئة الله تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون، وسع علم ربنا كل شيء، فعلمه أحاط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء والتي من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها، وإنا توكلنا على الله أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار.

ثم توجه بمناجاة ربه – فقال: ربنا احكم بيننا وبينهم واقض بما يدل على أننا على الحق وهم على الباطل، وافصل بما يليق بحال الفريقين، فأنت الحاكم فاظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم، ويتميز المحق من المبطل.

إلا أن الملأ أصروا على موقفهم جدلاً وعنادًا:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف/٩٠].

قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطًا لهم وتنفيرًا منه: لئن اتبعتم شعيبًا ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم

---

١) فتح القدير ٢/٢٢٥.

إنكم لخاسرون لاشترائكم الضلالة بهداكم[1]. فهم إذًا يريدونها عوجًا، يريدون أن يقلبوا الحق باطلاً والباطل حقًا، إنه الجدل العقيم الذي لا ينفع معه إلا التدمير والهلاك.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف/٩١-٩٣].

أي: فأخذتهم صيحة جبريل، قال ابن عباس: رجفت بهم الأرض وأصابهم حرٌ شديد. فرفعت لهم سحابة فخرجوا يطلبون الروح منها فلما كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب فصاروا في مدينتهم ميتين على وجوههم وركبهم لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها، فاستؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم بقريتهم لم يقيموا أصلاً.. وفي هذا إشارة إلى أن المكذبين والمتكبرين، وإن كانت لهم غلبة في وقتهم ولكن تنقضي أيامهم بسرعة ويخمل ذكرهم وتضمحل آثارهم ويكون أهل الحق مع الحق غالبًا في كل أمر، فلقد بالغ عليه السلام في الإبلاغ والإنذار وبذل وسعى في النصح والإشفاق فلم يصدقوا قوله فكيف يحزن عليهم وهم قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم[2].

---

١) تنوير الأذهان: ١/٥٥٥.

٢) الكشاف: ٢/٩٧.

الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس:

والموضع الثاني من حوار سيدنا شعيب عليه السلام جاء في سورة هود، وأطراف الحوار، شعيب عليه السلام، وقومه وموضوع الحوار: الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ[1] إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ[2] ۝ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود/٨٤-٨٦].

قال شعيب عليه السلام: يا قوم أطيعوا الله وتذللوا له بالطاعة لما أمركم به ونهاكم عنه، مالكم من معبود سواه يستحق عليكم العبادة غيره ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم فإني أرى فيكم الغنى ورخص السعر وهذا من خير الدنيا وزينتها، إني أخاف عليكم بمخالفتكم أمر الله وبخسكم الناس أموالهم أن ينزل بكم عذاب يوم محيط بكم عذابه، ويا قوم أوفوا الناس الكيل والميزان بالعدل بغير بخس ولا نقص، فلا تنقصوا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم كيلاً أو وزنًا فما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم هو حلال لكم وهو خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من

---

١) كان لهم مكيالان وميزانان أحدهما أكبر من الآخر، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون بالأصغر.

٢) معنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربًا.

حقوقهم، ويجب أن تكونوا مصدقين بوعد الله ووعيده وحلاله وحرامه —أي طاعة الله خير لكم - وما أنا عليكم أيها الناس برقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم وما بعثت لأحفظكم عن المعاصي والقبائح، وإنما على أن أبلغكم رسالة ربي فقد أبلغتكموها.

إلا أن قوم شعيب لم يؤثر فيهم هذا الحوار البليغ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ[1] تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود/٨٧].

قال قوم شعيب: أصلاتك تدعوك إلى أمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان وقد توارثنا عبادتها أبًا عن جد وأن نترك ما نفعله في أموالنا ما نشاء من التصرفات، ما أنت بحليم ولا رشيد فيما تامرنا وترشدنا[2] —تهكمًا واستخفافًا -.

فجاوبهم شعيب عليه السلام:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ[3] عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن

---

١) أصلاتك، قال الأعشى قراءتك، كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم السخرية والهزء.

٢) تنوير الأذهان: ١٩٢/٢ و١٩٣.

٣) التوفيق: اختصاص العبد بعناية أزلية، ورعاية أبدية.

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ[1]﴾ [هود/٨٨-٩٠].

قال شعيب عليه السلام: يا قوم –حوار فيه تودد وتقرب، وتذكير بالأواصر القريبة - أرأيتم إن كنت على بيان وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال، ورزقني ربي حلالاً طيبًا، وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه، بل لا أفعل إلا بما آمركم به، ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه، ما أريد إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم – وفي هذا لفت نظر للدعاة الذين يحاورون خصومهم أن لا ينهوا عن شيء ثم يفعلونه وأن يختاروا للناس ما يختارونه لأنفسهم، فإنه ليس بواعظ من يعظ الناس بلسانه دون عمله -.

ويستمر عليه السلام في حوارهم فيقول: وما إصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله، فإنه هو المعين على ذلك إن لا يعني عليه لم أصب الحق فيه وإلى الله أفوض أمري فإنه ثقتي وعليه اعتمادي في أموري، وإليه أقبل بالطاعة وأرجع بالتوبة، ويا قوم لا يحملنكم عداوتي وبغضي، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبخس الناس في المكيال والميزان، وترك الإنابة والتوبة، حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من الريح أو قوم صالح من الرجفة (الصيحة) أو الذين ائتفكت بهم الأرض فما هلاكهم منكم ببعيد، أفلا تتعظون به وتعتبرون؟ ويا أيها القوم: استغفروا من ذنوبكم بينكم وبين ربكم التي أنتم مقيمون عليها ثم

---

١) الودود: أي المحب ومنه قولهم: وددت الرجل أوده ودًا: إذا أحببته.

ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه فهو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة، وهو ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يوده ويحبه[1].

إلا أنهم ردوا ردًا قبيحًا يدل على عجز وضيق أفق:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا[2] وَلَوْلَا رَهْطُكَ[3] لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود/٩١].

قال قوم شعيب: ما نعلم حقيقة كثير مما تقول، وتخبرنا به وإنا لنراك فينا ضعيفًا، ولولا أنت في عشيرتك وقومك لرجمناك وما أنت ممن يكرم علينا، فيعظم علينا إذلاله وهوانه، بل ذلك هين علينا بل رهطك هم الأعز لكونهم من أهل ديننا فإنما نكف عنك للمحافظة على حرمتهم، وهذا ديدن السفيه المجادل يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد.

---

١) قال ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة مع راحلة، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى اشتد عليه الحر والعطش، قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته) أخرجه أحمد وابن ماجه – الفتح الكبير: ٤/٣.

٢) قيل كان أعمى، وقيل كان ضعيف البصر.

٣) رهط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم.

فجاوبهم عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ[1] أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا[2] إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود/٩٢-٩٣].

قال شعيب لقومه: يا قوم أعززتم قومكم، فكانوا أعز عليكم من الله، واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عقابه، ولا تعظمونه حق التعظيم، ويا قوم اعملوا على تمكنكم من العمل الذي تعملونه فإني عامل على تؤدة من العمل الذي أعمله فسوف تعلمون أينا الجاني على نفسه والمخطئ عليها.

فاستمروا على غيهم وضلالهم ولم ينفعهم هذا الحوار التذكيري فكان هلاكهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود/٩٤، ٩٥].

---

١) همزة الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

٢) تقول العرب لكل ما لا يعبأ بأمره قد جعل فلان هذا الأمر بظهره.

يقول الحق تبارك وتعالى: ولما جاء قضاؤنا فيهم نجينا شعيبًا والذين آمنوا به برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء فأخمدتهم وأهلكتهم في ديارهم كأن لم يعيشوا فيها..

كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن محاورته مع قومه، وكمال اقتداره في مراجعته جوابهم، وكان كثير البكاء حتى عمي، ثم رد الله عليه بصره، وهذه حال المقربين، فإنهم جعلوا الله تعالى بين أعينهم وجعلوا الخلق وراء ظهرهم، فلم يلتفتوا إلى شيء من الكونين، حبًا لله تعالى وقصرًا للنظر عليه، وهم العبيد الأحرار، والناس في حقهم على طبقات، فأما أهل الشقاء فلم يعرفوهم من هم لانطماس بصيرتهم، وعدم استعدادهم لهذا الانكشاف، ألا ترى إلى قوم شعيب كيف حجبهم كونه أعمى عن رؤية جمال نبوته، وظنوا أن لهم أبصارًا ولا بصر له، ولذا عدوه ضعيفًا ولم يعرفوا أنهم عُمي في الحقيقة، وأن أبصارهم الظاهرة لا تستجلب لهم شرفًا، وأن الحق مع أهل الحق والله تعالى أرسل الأنبياء عليهم السلام إلى الناس الغافلين، ليفتحوا عيون بواطنهم من نوم الغفلة، ويدعوهم إلى الله تعالى، فمن كان له منهم مستعدًا لهذا الانفتاح رضي بالتربية والإرشاد وقام في طريق الحق بالسعي والاجتهاد ومن لم يكن له منهم ذلك أبى واستكبر عن أخذ التلقين وامتنع عن الوصول إلى حد اليقين[1].

والموضع الثالث من حوار نبي الله شعيب جاء في سورة الشعراء[2].

وأطراف الحوار، شعيب عليه السلام وقومه، وموضوعه الأمر بالعدل والقسط.

---

١) تنوير الأذهان: ٢/١٩٥.

٢) الشعراء: ١٧٦ - ١٩١.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ[1] ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

[الشعراء/١٧٦-١٨٤]..

قال لهم نبيهم شعيب عليه السلام: يا قوم ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم، إني رسول أمين على وحيه فاتقوا عقاب الله على خلافكم أمره وأطيعون ترشدوا، وما أسألكم على نصحي لكم من جزاء وثواب، ما جزائي وثوابي إلا على رب العالمين، أوفوا الناس حقوقهم من الكيل ولا تكونوا ممن نقصهم حقوقهم، وزنوا بالميزان الذي لا يبخس ولا تنقصوا الناس حقوقهم، ولا تكثروا الفساد في الأرض، ويا قوم اتقوا عقاب الله ربكم الذي خلقكم وخلق الخلق الأولين.

---

١) الأيكة الشجر الملتف، وهي واحدة الأيك، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تجلوا بقادمتي حمامة أيكة بردًا أسف لثاته بالإثمد

وأصحاب الأيكة هم أهل مدين.

فجاوبوه:

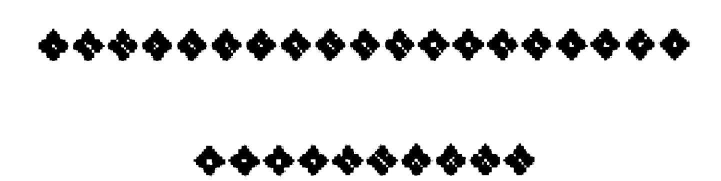
﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء/١٨٥-١٨٧].

قال قومه: يا شعيب إنك من المسحورين وإنه ليغلب على ظننا أنك كاذب فيما تدعيه على الله، فأنزل علينا جانبًا من السماء عذاب ذلك الكسف، أو قطعًا من النار أو غيرها مما يعذب به.

فجاوبهم عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء/١٨٨-١٩١].

قال شعيب لقومه: ربي أعلم بأعمالكم هو محيط بها لا يخفى عليه منها شيء وهو مجازيكم على ذلك إن شاء، وليس في وسعي أن آتيكم به من عندي. فاستمروا في تكذيبه وأصروا على ذلك، فجاءت سحابة ظللتهم، فلما تتاموا تحتها التهبت عليهم نارًا وأحرقتهم.



الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - وجوب الإيفاء بالكيل والميزان في البيع والشراء.

٢ - توعد الله سبحانه وتعالى المطففين الذين يتلاعبون بالكيل والميزان بأشد العقوبات.

٣ - العقاب والهلاك والدمار لكل من لم يستجب لدعوة الأنبياء والرسل.

٤ - الحق هو المنتصر في نهاية المطاف.

٥ - على الداعي إلى الله أن يتحلى بالأناة والصبر.

٦ - الدعوة إلى عدم الاستهزاء بذوي العاهات والإعاقات.

٧ - في شعيب عليه السلام قدوة حسنة للدعاة حيث كان محاورًا من الطراز الأول يحسن مراجعة قومه، ويقيم الحجة عليهم.

٨ - إن الله تعالى خير من يفصل بين الناس وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد، ولا محاباة لأحد.

٩ - المكره لا اختيار له ولا تعد موافقته موافقة.

١٠ - علم الله يحيط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء والتي من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم.

١١ - المجادلون يريدونها عوجًا وذلك بقلب الحق باطلاً والباطل حقًا، وهذا هو الجدل العقيم الذي لا ينفع، وعاقبته التدمير والهلاك.

١٢ - إن المكذبين والمتكبرين وإن كانت لهم غلبة في وقت من الأوقات فإنه تنقضي أيامهم بسرعة وتضمحل آثارهم ويخمد ذكرهم.

١٣ - على المحاور أن يكون في حواره تودد وتقرب وتذكير بأواصر القربى.

١٤- على الدعاة الذين يحاورون خصومهم أن لا ينهوا عن شيء ثم يفعلونه، وأن يختاروا للناس ما يختارونه لأنفسهم؛ لأنه ليس بواعظ من يعظ الناس بلسانه دون عمله.

١٥- المجادل السفيه يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد.

****

****



المبحث الرابع

الحوار في الأخلاق

الحوار الأخلاقي في قصة قارون

المبحث الرابع

الحوار الأخلاقي في قصة قارون

بيان نتيجة الغرور والطغيان:

ورد الحوار في قصة قارون في سورة القصص[1]، وأطراف الحوار قارون وقوم موسى مؤمنهم وكافرهم، والهدف منه بيان نتيجة الغرور والطغيان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ[2] كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ[3] بِالْعُصْبَةِ[4] أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ

---

1) القصص: ٧٦ -٨٣.

2) قارون: اسم أعجمي على وزن فاعول ممنوع من الصرف لأنه علم وأعجمي وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لادي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث، قال ابن إسحق كان عم موسى لأب وام فجعله أخًا لعمران، وهما أبناء قاهث – وقيل هو ابن خالة موسى ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه فنافق مثل السامري وخرج عن طاعة موسى (الطبري ٢٠/١٠٥ – الكشاف ٣/١٩٠ – القرطبي ١٣/٣١٠ – فتح القدير ٤/١٨٥).

3) يقال ناء بحمله: إذا نهض به متثقلاً، ويقال ناء بي الحمل: إذا أثقلني، والمعنى: يثقلهم حمل المفاتيح، قال أبو عبيدة هذا من المقلوب، والمعنى لتنوء بها العصبة: أي تنهض بها، قال أبو زيد نؤت بالحمل: إذا نهضت به، قال الشاعر:

إنا وجدنا خلفًا بئس الخلف عبدًا إذا ما ناء بالحمل وقف

قال الفراء: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها.

كما يقال: يذهب بالبؤس ويذهب البؤس وبه قال كثير من السلف (فتح القدير ٤/١٨٦).

4) العصبة: الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض وقد ورد في معناها عدة أقوال:

١ - من ثلاثة إلى عشرة.

٢ - من عشرة إلى خمسة عشر.

٣ - ما بين العشرة إلى العشرين.

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ[1] ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ[2] وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص/٧٦-٧٧].

قارون كان ابن عم موسى[3] آمن به ثم تغير حاله بسبب الغنى فنافق وتجبر وتكبر على قومه، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله تعالى من الأموال والكنوز وطلب أن يكون قومه تحت أمره لحصوله على الأموال الوفيرة والكنوز الكثيرة

٤- من الخمسة إلى العشرة.

٥- أربعون.

٦- سبعون.

٧- قيل غير ذلك. (الطبري ١٠٨/٢٠ – فتح القدير ١٨٦/٤).

١) لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين: ورد في معناها عدة أقوال:

١- الزجاج: لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه والفرحين والفارحين سواء.

٢- مجاهد: لا تبغ إن الله لا يحب الفرحين الباغين.

٣- لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين.

٤- لا تفسد كقول الشاعر: إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع.

٥- الفراء: معنى الفرحين الذين هم في حال فرح والفارحين الذين يفرحون في المستقبل (القرطبي ٣١٤/١٣).

٢) ولا تنس نصيبك من الدنيا: ورد في معناها عدة أقوال:

١- جمهور المفسرين: أن يعمل في دنياه لآخرته، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح.

٢- الزجاج: لا تنس أن تعمل لآخرتك، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل لآخرته.

٣- الحسن وقتادة: لا تضيع حظك من دنياك فما تمتعك بالحلال وطلبك إياه.

(الطبري ١٢٢/٢٠ – فتح القدير ١٨٦/٤).

٣) ذكر ذلك النخعي وقتادة وغيرهما.

والتي تثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال.

فحاوره قومه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص/٧٦، ٧٧].

قال قومه ناصحين له: لا تبطر ولا تفرح، فالله لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون على عباد الله بأموالهم واطلب فيما أعطاك الله من الغنى رضاه وذلك بالإنفاق في الطاعات ولا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وتحريك إياه، وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك فيما أنعم به عليك، ولا تطلب بهذا المال التطاول على الناس فتظلمهم، وتفسد في الأرض بالمعاصي، فالله لا يحب من كان مفسدًا لسوء عمله.

فجاوبهم متكبرًا عن قبول النصيحة:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ(1)﴾ [القصص/٧٨].

---

1) قيل في معنى ذلك:

١ - الزجاج: إن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني.

٢ - علم التوراة.

٣ - علمه بوجوه المكاسب والتجارات.

٤ - معرفة الكنوز والدفائن.

٥ - علم الكيمياء =

قال قارون: إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب وأنا مستحق لهذا الإكرام.

فقال الله تعالى ردًا عليه:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ[1]﴾ [القصص/٧٨].

أي: أو لا يعلم هذا المغرور أن الله قد أهلك من قبله من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالاً كالنمرود وغيره، ولا حاجة أن يسأل الله المجرمين عن ذنوبهم لأنه عالم بكل شيء، واستمر قارون في غيه وغطرسته:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ[2]﴾ [القصص/٧٩].

أي خرج قارون على قومه في أكمل وأظهر زينة في موكب حافل باهر مما جعل النفوس الضعيفة تميل إليه وتتمنى مثله فقد انخدعوا بالبريق والزخرف والزينة:

---

*(الكشاف ٣/١٩١ – فتح القدير ٤/١٨٧).

١) قيل في معنى ذلك: ١ - مجاهد: لا تسأل الملائكة غدًا عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون، ٢ - قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها بل يدخلون النار، ٣ - لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية (فتح القدير ٤/١٨٧).

٢) قالوا في تفسير ذلك: ١ - الحسن: الحمرة والصفرة، ٢ - قيل خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه اربعة آلاف على زيه، ٣ - قيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج، ٤ - قيل: في تسعين ألفًا عليهم المعصفرات وهو أول يوم رؤي فيه المعصفر (الكشاف ٣/١٩١ – القرطبي ١٢/٣١٧).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ[1] إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[2]﴾ [القصص/٧٩].

قال ضعفاء الإيمان: يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون، إنه ذو نصيب وافر من الدنيا وهو في غاية الإكرام والتعظيم، فجاوبهم صادقي الإيمان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص/٨٠].

قال أهل العلم والإيمان: ألزمكم الله ويلاً فارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خير مما ترون وتتمنون من حال قارون، ولا يوفق لهذه الكرامة إلا الصابرون على الطاعات وعن زينة الدنيا وشهواتها ثم بين الله عاقبة البطر والأشر:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

---

1) قالوا في تفسير ذلك: ١ - المتمنون مسلمون، وتمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر. قال قتادة: تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبيل الخير، ٢ - وقيل المتمنون كفار (الكشاف ٣/١٩١).

2) الحظ: الجد وهو البخت والدولة، وصفوه بأنه رجل محظوظ مبخوت، يقال فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود (الكشاف ٣/١٩٢).

وَيْكَأَنَّ[1] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص/٨١، ٨٢].

فجعل الله الأرض تغور به وبكنوزه جزاء لبطره فما استطاع أحد من الأنصار أو الأعوان أن يدفع عنه العذاب وما استطاع هو أن ينصر نفسه فهلك.. وهنا يتوجه السياق إلى ضعاف الإيمان ليبين حالهم وقد شاهدوا هلاك قارون عيانًا فقالوا نادمين آسفين على ما صدر منهم وما تمنوه: تعجب من صنع الله كيف يوسع الرزق لمن يشاء من عباده بفضله تعالى وكيف يضيق الرزق لمن يشاء ابتلاء، لولا أن لطف الله بنا وتفضله علينا لكان مصيرنا مثل مصير قارون، ونعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بسعادة الدارين الكافرون.

روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن عمه وكان يتبع العلم حتى جمع علمًا فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده، فقال له موسى: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة، فأبى.

---

1) ورد في معناها:

١- النحاس: أن القوم تنبهوا فقالوا: وي، والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه وي.
٢- الجوهري: كلمة تعجب.
٣- الفراء: هي كلمة تقرير كقولك أما ترى صنع الله وإحسانه.
٤- قطرب: إنما هي ويلك فأسقطت اللام ومنه قول عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرا سقمها ... قول الفوارس ويك عنتر أقدم

٥- ابن الأعرابي: اعلم.
٦- القتيبي: معناها بلغة حمير رحمة.
٧- الكسائي: كلمة تفجع.
٨- قيل هي بمعنى ألم تر.
٩- قيل: هي كلمة تنبيه بمنزلة الا (الطبري ٢٠/١٢٠ – ١٢١ - فتح القدير ٤/١٨٨).

فقال: -يعني قارون -: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم، جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟.

فقالوا: -يعني قومه -: لا نحتمل فما ترى؟

فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها.

فأرسلوا إليها.فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك.

قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى..

فقال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك.

قال: نعم.

فجمعهم.

فقالوا له: ما أمرك ربك؟

قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا. وأمرني إذا زنا وقد أحصن أن يرجم.

قالوا: وإن كنت أنت؟.

قال: نعم.

قالوا: فإنك قد زنيت.

قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت.

فقالوا: ما تشهدين على موسى؟.

فقال لها موسى: أنشدك بالله إلا ما صدقت.

قالت: أما إذا نشدتني بالله فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله.

فخرَّ موسى ساجداً لله يبكي.

فأوحى الله إليه ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك.

فرفع رأسه فقال: خذيهم.

فأخذتهم إلى أعقابهم.

فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى.

فقال: خذيهم.

فأخذتهم إلى ركبهم.

فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى.

فقال: خذيهم.

فأخذتهم إلى أعناقهم.

فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى.

فقال: خذيهم.

فأخذتهم فغشيتهم.

فأوحى الله يا موسى: -سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم.

قال ابن عباس: وذلك قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى(١).

---

١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مرديه والحاكم وصححه (فتح القدير ١٨٩/٤ – الكشاف ١٩٢/٣ – الطبري ١١٦/٢٠، ١١٧ – القرطبي ٣١١/١٣).

الدروس والعبر المستفاة من القصة

١ - نظرة الناس إلى صاحب المال قد تكون خاطئة.

٢ - المال وديعة من الله لدى الإنسان، وعليه أن يستثمره في المصالح العامة، وقضاء حوائج الناس.

٣ - توعد الله سبحانه وتعالى للذين يكنزون المال ويتباهون به بالهلاك في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

٤ - إن الله تعالى لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ويتكبرون على عباد الله بأموالهم.

٥ - على المسلم أن يطلب فيما أعطاه الله من الغنى رضى الله وذلك بالإنفاق في الطاعات.

٦ - على المسلم أن يحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليه.

٧ - لا حاجة لله أن يسأل المجرمين عن ذنوبهم لأنه عالم بكل شيء.

٨ - جزاء الله لعباده المؤمنين خير مما أوتي قارون.

٩ - إن الله تعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده بفضله ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء.



وقفة وتأمل

لقد سبق وأن أشرنا في الفصول والمباحث السابقة في هذا الكتاب أن العصر الذي نعيشه يختلف عن العصور الغابرة في كل المعايير والمقاييس، وطرحنا سؤالاً عن مدى استفادتنا من كل هذه القصص التي جرت أحداثها بين الأنبياء والأقوام الذين بعثهم الله رسلا لهدايتهم إلى طريق الحق والصواب فإن الجانب الأخلاقي فيها بعد تأمل وتمعن يختلف اختلافاً كلياً ويحاكي ما حدث في تلك العصور بل ويتفوق عليها. ولن نبالغ إذا قلنا: ما أشبه اليوم بالأمس:

بالأمس البعيد اقترفت جرائم كثيرة مبنية على سوء تلبية الشهوة بالإقدام على اللواط وهو وطء الرجال دون النساء .

وبالأمس استخدم الإغراء للإيقاع في جريمة الزنا، كما حدث ليوسف عليه السلام مع امرأة العزيز .

وبالأمس استخدم المال في غير محله؛ فكُنز بدل أن يستثمر، واستغل بالزينة والمباهاة وحرمان المحتاجين منه كما عرفنا من قصة هارون .

وبالأمس البعيد أسيء استعمال الكيل والميزان في زمن شعيب عليه السلام، وكان سبباً في هلاك قومه، وقد حذرنا الله من هذه الجريمة النكراء، وأنزل سورة كاملة باسم (المطففين) وتوعّد بها من إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

وإذا كانت هذه الجرائم حدثت في أوقات متفرقة، فإنها اليوم تحدث مجتمعة نطالعها ونشاهدها عياناً عند كثير من الشعوب .

فاللواط قد انتشر وعمَّ وطمَّ تحت مسميات جديدة، ناهيك عن اكتسابه صيغة شرعية وقانونية باركتها بعض حكومات العالم اليوم .

فإذا كان قوم لوط أهلكوا بسبب هذه الجريمة بسبب جهل وعدم تقدير مخاطرها، فإن زواج المثليين وهو أشد مرادفة من اللواط أصبح يمارس تحت أسماع البشر وبصرهم دون رادع أو نذير .

وإني لأخشى ويخشى كل مؤمن أن نفاجأ بين لحظة وأخرى بكارثة لا تبقي ولا تذر، لا تفرق بين الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر لكثرة أشياع هذا الفعل ومؤيديه والذين أصبحوا مرشحين لدخول موسوعة(جينس) ولم يبقَ أمامنا سوى التضرع إلى الله والابتهال إليه كي يبقينا ويحفظنا من شر ما سيحدث إن لم يكن اليوم فغدًا .

وما يقال عن اللواط والشذوذ وزواج المثليين، يقال عن الإغراء والذي من طبيعته أن يمارس في أماكن معينة مغلقة، فلقد أصبح اليوم يمارس دون رقيب في كل مكان في الشارع والأسواق العامة وعلى صفحات الجرائد والمجلات وشاشات القنوات الفضائية التي أصبحت تتفنن في ابتداع وسائل جديدة بتقنيات جديدة والحديث يطول!

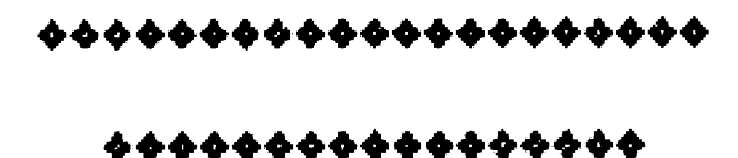
وأمام كل ما يحدث ..ألا نتوقع عذاب الله وعقابه ....!؟

أما عن المال واكتنازه في المصارف والبنوك المحلية والخارجية للحصول على الأرباح بكل يسر وسهولة باسم الفوائد فحدث ولا حرج، فهي في الحقيقة ربا، وقد أحل الله البيع وحرَّم الربا، وأعلن حربًا شعواء على المتعاملين به، أليس الأجدر أن يستثمر هذا المال ليقضي على البطالة ويسد حاجات المحتاجين في

الحدود المشروعة، فلا يبقى محتاج يمد يده في قارعة الطريق، وتختفي أسراب المتسولين الذين يستجدون المصلين أمام المساجد أيام الجُمع .

فالمال والحمد لله كثير وكثير جدًا، ولكنه غير مستخدم في أوجهه المشروعة في الاستثمار وإخراج الزكاة. فهلا نأخذ من قصة قارون الذي كان ماله سببًا في هلاكه عبرة ودرسًا.

الحديث سيطول ولا تتسع صفحات هذا الكتاب للحديث عنه. فكل ما ذكرنا من جرائم الإغراء واللواط والتطفيف في الميزان واكتناز المال واستخدامه في غير محله هي مواد دسمة لعلمائنا ودعاتنا ووعاظنا الأفاضل ليبداوا حوارات مكثفة وواسعة مبنية على الحجة والإقناع ومقرونة بالهدوء واللين، فلعل الله يأخذ بأيديهم ويعود الناس إلى رشدهم، وتطمئن بعدها النفوس وتهدأ، وبذلك نتجنب ما يخبئه لنا القدر من براكين وزلازل وكوارث لم نسمع بها من قبل.



الفصل الثالث

الحوار الاجتماعي

- تمهيد
- المبحث الأول: الحوار الاجتماعي في قصة ابراهيم عليه السلام
- المبحث الثاني: الحوار الاجتماعي في قصة يوسف عليه السلام
- المبحث الثالث: الحوار الاجتماعي في ولادة موسى عليه السلام
- المبحث الرابع: الحوار الاجتماعي في ولادة مريم وولادة عيسى عليهما السلام .

الفصل الثالث

الحوار الاجتماعي

تمهيد

الإنسان اجتماعي بطبعه، وهو مدفوع بطبيعته لأن يعيش في وسط جمعي، ولا سبيل له سواه، وهو في رحلة الحياة يحيا في مختلف الجماعات التي ينتمي إليها بصلات القرابة والدم، أو بعلاقات الصداقة والجوار، أو بروابط الزمالة والعمل. وهذه الصلات والعلاقات والروابط تتشابك فيما بينها لتؤدي في النهاية إلى تشكيل نمط الحياة التي يعيشها الفرد في المجتمع[1].

والإنسان بانتمائه إلى الجماعة فإنه يرتبط بغيره من الأفراد في الجماعة بعلاقات، وفي ظل هذه العلاقات يتفاعل الناس بعضهم مع بعض عن طريق الحوار البنّاء الذي يزيد هذه العلاقات عمقًا أو توثقًا، ويزيد التفاعل بين الناس، ويكبر حجمًا ويتنوع مضمونًا. وعضوية الإنسان في الجماعة وتعامله وتفاعله مع أعضائها قد ينتهي بآثار إيجابية إذا كان حواره إيجابيا أو قد يؤدي إلى بعض المتاعب والصعاب والمعوقات إذا كان حواره سلبيًا، فالحوار الاجتماعي يهدف إلى خدمة الإنسان كفرد أو كعضو في جماعة ليصل به إلى مستوى رفيع من العلاقات الإنسانية عن طريق إحداث تغييرات اجتماعية متعددة في الأفراد والمجتمعات ليقوم الفرد بأداء أفضل لدوره في المجتمع .

والحوار الاجتماعي يكون إيجابيًا ويحقق الهدف إذا بدأنا مع الفرد من حيث هو وتعرفنا على مستوى قدراته، وتقبلنا ذلك المستوى ثم بذلنا قصارى جهدنا للارتفاع به إلى معدلات تتمشى مع قابليته للتغيير حتى لا تحدث عنده ردة أو

---

(١) الفاروق زكي يونس، الخدمة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي/٣

يعقب الحوار نكوص، وأفضل طريق لذلك هو التنظيم الإسلامي للحياة الاجتماعية لأنه أكمل تنظيم وأدقه.

ومن يستقرئ القرآن جيدًا يجد أنه اتجه برسالته إلى تجمعات البشر لينظم العلاقات بين أفراد المجتمع، فهو يدعو إلى الأخوة والتعاون والتآزر، وهو ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بنفسه وعلاقة الإنسان بغيره، ويشمل علاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالأسرة والعلاقات بين الجنسين، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، ثم علاقة المسلمين بغير المسلمين في السلم وفي الحرب .

وعلم الاجتماع بمفهومه الحديث يقوم موضوعه على أساس دراسة هذه العلاقات القائمة بين الناس في شتى جوانب الحياة البشرية، وبذلك يكون القرآن قد جعل من الإسلام وعن طريق الحوار دينًا اجتماعيًا بكل ما يعنيه مصطلح اجتماعي من مفاهيم ومضامين .

والذي يمعن النظر في كل هدي جاء به القرآن يرى أنه رسم للبشرية عن طريق الحوار علاقات يتعاملون بها لتشيع المودة ويشع النور فيما بينهم. وحتى يتم ذلك وضع ضوابط خلقية وقواعد سلوكية تنظم التعامل وتسير التصرفات نحو مجتمع أفضل، ليعيش كل فرد حياة مستقرة مليئة بالبهجة والسرور والأمن والكفاية والجو النظيف والمظهر الجميل. ولا يمكن توفير هذا الجو إلا إذا أدى كل واحد واجبه نحو الإنسانية التي هو جزء منها، ويتم تحقيق ذلك عن طريق الحوار الاجتماعي لغرس الرحمة في النفوس، وإشعار الناس بجمال الإسلام وآثاره حتى يحبوه ويأخذوا به أنفسهم عن اقتناع عقلي وشعور وجداني بأن الإسلام لا بديل له ولا مثيل .

فعن طريق الحوار الاجتماعي يحسن الزوج إلى زوجته ويعرف كل واحد حق الآخر عليه فتظلهما السعادة وتملأ حياتهما البهجة والسرور والاستقرار، مما يعود على المجتمع بالخير والرفاه.

وعن طريق الحوار الاجتماعي يتعلم الأبناء البر والوفاء للآباء والإحسان إليهما والقيام بواجبهما، ولبيان هذا الأمر فقد تم تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الحوار الاجتماعي في قصة إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثاني: الحوار الاجتماعي في قصة يوسف عليه السلام.

المبحث الثالث: الحوار الاجتماعي في ولادة موسى عليه السلام.

المبحث الرابع: الحوار الاجتماعي في ولادة مريم و ولادة عيسى عليهما السلام.

****

****



الحوار الاجتماعي
في
قصة إبراهيم [عليه السلام]

المبحث الأول

الحوار الاجتماعي في قصة إبراهيم عليه السلام

الأسرة أول نظام اجتماعي عرفه الإنسان، وهي أول لبنة في بناء المجتمع، لها خصائصها ووظيفتها التي تؤثر في المجتمع ويؤثر فيها، وهي في تفاعل مستمر مع النظم الاجتماعية المختلفة لتحقيق وظائف الإنسان الفطرية كغريزة البقاء، والغريزة الجنسية.

والأسرة أساس الاستقرار في الحياة الاجتماعية، وهي التي تطبع الفرد في اتجاهاته وميوله وتميز شخصيته، وهي التي تعلم الفرد كيف يتفاعل اجتماعيًا

وأول صورة لتكوين الأسرة هو الزواج ويعني الترابط بين رجل وامرأة بعقد وميثاق غليظ في السَّراء والضَّراء في الحضر والسفر، فبعد أن يئس إبراهيم عليه السلام من إيمان قومه فارقهم وهاجر بزوجته إلى بيت المقدس .

وفاء إبراهيم وبرُّ ولده الحليم:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠١]

توجه إبراهيم إلى ربه وطلب منه أن يرزقه أولادًا مطيعين يعينونه في غربته، فاستجاب الله دعاءه وبشّره بغلام حليم، ثم دار حوار بين الأب الوفي لربه وبين الولد البار بأبيه . ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾[1]

---

(١) (فلما بلغ معه السعي) الفاء فصيحة، وفي الكلام حذف، والتقدير: فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه. قال مجاهد: أي شبَّ وأدرك سعيه سعي إبراهيم. وقال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾

[الصافات: ١٠٢]

قال إبراهيم لولده: يا بني إني أمرت في المنام أن أذبحك. فما رأيك ؟

فأجابه الولد أحسن جواب:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]

قال ولده : يا أبت امضِ لما أمرك الله به من ذبحي فستجدني صابرًا راضيًا ببلاء الله وقضائه.

وهنا نجد حوارًا رقيقًا ، فالوالد يقول: يا بني على سبيل الترحم، فأجابه الولد: يا أبتِ على سبيل التوقير والتعظيم، وفوض الأمر إليه ،ثم ذكر طريقة التنفيذ فقال:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾[الصافات: ١٠٣]

أي فلما استسلما –الأب والابن -لأمر الله وصرعه على وجهه ليذبحه، جاء الفرج من الله تعالى[1]:

---

١) حكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب. فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر فقال له: اشدد ربطي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينتقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز عليَّ ليكون أهون، فإن الموت شديد ، واقرأ على أمي سلامي، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها. فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه. فقال له كبني على وجهي لأنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله ، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب»

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الصافات:١٠٦-١١١]

ناداه ربُّه: قد حصل المقصود من رؤياك، فقد امتثلت للأمر وصبرت على القضاء، فإنّا قد عفونا عن ذبح ولدك، إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح الذي يتميز فيه المخلص من غيره، وفداه ربُّه بكبش من الجنة، وأبقى له ربُّه ثناءً حسنًا إلى يوم الدين. فسلام من الله على إبراهيم، فإنه كان من الراسخين في الإيمان مع اليقين والاطمئنان.

البشرى بغلام عليم:

واستمرت النعم على إبراهيم

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣]

وبشره ربُّه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحق، وأفاض عليهما بركات الدنيا والدين، ومن ذريتهما محسن ومسيء..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾

[هود/٦٩].

---

*السكين ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح (الكشاف ٢/ ٣٥٠ و ٣٥١).

قالت الملائكة: نسلم عليك سلامًا

فأجابهم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ (1)

قال إبراهيم عليكم سلام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ (2) وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ [هود/69، 70].

أي: فما أبطأ حتى جاء بعجل مشوي على الحجارة المحماة في أخدود، فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل بقوله "ألا تأكلون؟!" فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكر ذلك وأوجس منهم خيفة – لأن العادة أن الضيف إذا نزل على أحد فقدم إليه طعامًا فلم يأكل، عرف أنه ينوي شرًا(3) ولما رأت الملائكة ذلك منه قالوا له: لا تخف وبينوا له سبب مجيئهم: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود/70].

قالت الملائكة: نحن لا نريد بكم سوءًا، وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم وتدميرهم بسبب إجرامهم، وكانت امرأته سارة واقفة تساعده في خدمة ضيوفه ،فلما سمعت كلامهم ضحكت –إما سرورًا بالأمن، أو فرحًا بهلاك أهل الخبث– فعندئذ بشروها بإسحق ومن بعده يعقوب ولدًا له.

---

1) حياهم بأحسن من تحيتهم، لأن الجملة الفعلية دالة على التجدد والحدوث والاسمية دالة على الثبات والاستمرار (تنوير الأذهان 2/187).

2) نكرهم، يقال نكرته وأنكرته واستنكرته إذا وجدته على غير ما تعودته منه.

قال الشاعر: فأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وقيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونكرت لما تراه بقلبك (فتح القدير 2/510).

3) أيسر التفاسير 2/562.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ (١) إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود/٧١].

ويبدأ الحوار بينها وبين الملائكة:

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ (٢) ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود/٧٢].

قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنّة، وهذا زوجي شيخ هرم فكيف يأتينا الولد؟(٣)

فأجابتها الملائكة:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ (٤) وَبَرَكَٰتُهُۥ (٥) عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود/٧٣].

---

١) الوراء بمعنى الخلف أي بشروها بأنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد، وهو يعقوب ابن إسحاق، وتوجيه البشارة إليها لا إليه مع أنه الأصل في ذلك، للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد، وكان لإبراهيم ولده إسماعيل من هاجر، ولأن المرأة أشد فرحًا بالولد، قال ابن عباس: فضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وعلى هذا؛ =تكون الآية من التقديم والتأخير تقديره وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت (تنوير الأذهان ٢/١٨٨).

٢) يا ويلتا: قال الزجاج أصلها يا ويلتي، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيرًا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل الويل الخزي ثم شاع في كل أمر فظيع (فتح القدير ٢/١١٥).

٣) صفوة التفاسير ٢/٢٤.

٤) الرحمة: أي الرحمة التي وسعت كل شيء وقيل الرحمة: النبوة.

٥) البركات: هي النمو والزيادة، أو الأسباط من بني إسرائيل لما فيهم من الأنبياء.

قالت الملائكة: لا ينبغي لك أن تعجبي من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين... فالله لا يعجزه شيء رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت النبوة تتوارث في نسلكم . إنه جلَّ ثناؤه محمود ممجد في صفاته وذاته مستحق لجميع المحامد .

وفي سورة الذاريات أطراف الحوار: إبراهيم عليه السلام والملائكة وزوجته والملائكة. وفي هذا الحوار نجد تفخيمًا لشأن الحديث لأنه استفهام بمعنى التعجب وذلك للتشويق إلى استماعه .

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ[1] إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الذاريات/ ٢٤ و ٢٥].

فأجابهم إبراهيم :

﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات/٢٥-٢٧].

قال إبراهيم: عليك سلام ،أنتم قوم لا نعرفكم، غرباء لستم من أهل هذا البلد ، فلذا سارع في إكرامهم في سرعة وخفية عن ضيفه ،فجاءهم بعجل سمين مشوي، وحثهم على الأكل، وفي هذا تلطف منه في العبارة وعرض حسن فقال:

---

١) الضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم لأنه في الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثني عشر ملكًا، وقيل تسعة عاشرهم جبريل، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وملك معهما، وجعلهم ضيفًا لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك، وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه وأخدمهم امرأته وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون (الكشاف ٤/ ١٧).

ألا تأكلون ؟ فأعرضوا عن الأكل، فأضمر في نفسه الخوف منهم ظنًّا أن امتناعهم إنما كان لشر يريدونه .

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾. [الذاريات/٢٨].

قالت الملائكة لإبراهيم: لا تخف منّا ، إنّا رسل ربك ونبشرك بولد من زوجتك سارة يكون عليمًا عند بلوغه، فسمعت الحديث سارة، فأقبلت نحوهم في صيحة وضجة تستفسر الخبر، وهنا يبدأ الحوار بينها وبين الملائكة .

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات/٢٩].

قالت سارة للملائكة: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟!

فأجابتها الملائكة:

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الذاريات/٣٠].

---

١) في صرة: في صيحة من صر الجندب وصر القلم والباب، والجملة في محل نصب حال — أي فجاءت صارة، قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء، وقيل فأخذت في صرة كما تقول: أقبل يشتمني، وقيل صرتها قولها أوه، وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها (الكشاف ١٨/٤) وقيل: أقبلت في صرة: أي في =جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة. قال الجوهري: الصرّة الضجة والصيحة، والصرّة الجماعة، والصرّة الشدة من كرب وغيره. قال امرؤ القيس:

فألحقه بالهاديات ودونه ... جراجرها في صرة لم تزيل

(القرطبي: ٤٧/١٧ وفتح القدير ٨٨/٥).

قالت الملائكة لسارة: مثل الذي أخبرناك به قال ربك فنحن نخبرك عن الله فلا تعجبي، إنه هو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم وبما كان وهو كائن(١)

وفي سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝ ﴾ [الحجر/٥١-٦٠].

أي أخبر عبادي عن ضيوف خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط

﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾

قالت الملائكة: سلمت من الآفات والآلام سلامًا .

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾(٢)

---

١) الطبري ٢٨/١.

٢) الوجل: اضطراب في النفس لتوقع مكروه.

قال إبراهيم: إنّا خائفون منكم –وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا -

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

قالت الملائكة: لا تخف فإنّا نبشرك بغلامٍ ذي علمٍ وفطنةٍ وفهمٍ وهو إسحق

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[1]

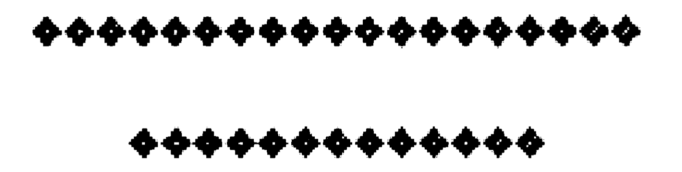
قال إبراهيم متعجبًا من مجيء ولد من شيخ وعجوز: أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم وتأثيره فيَّ وفي زوجي، فبأي أعجوبة تبشرون؟

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾

قالت الملائكة: بشرناك باليقين الثابت فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله .

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[2] [الحجر/٥٦].

قال إبراهيم : لا ييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب، الجاهل برب الأرباب، فليس بي قنوطٌ من رحمته تعالى .



---

١) عن مجاهد قال: عجب من كبره وكبر امرأته، (الطبري ١٤/ ٤٠).

٢) الضالون: أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب، يعني أنه استبعد الولد لكبر سنِّهِ لا أنه قنط من رحمة الله تعالى (القرطبي ١٠/ ٣٦).

العبر والدروس المستقاة من القصة

١ - إذا دعوت الله عزَّ وجلَّ أن يرزقك الأبناء فادعوه أن يرزقك الأبناء الصالحين.

٢ - طاعة الأبناء لآبائهم واجبة (ما لم تكن في معصية الخالق).

٣ - الحوار بين الأب وابنه يجب أن يكون لينًا رقيقًا هادئًا ، مع حسن انتقاء الألفاظ.

٤ - الابتلاء في هذه الدنيا يحصل لجميع الناس حتى الأنبياء.

٥ - وجوب الاستسلام لقضاء الله وقدره، وعدم اليأس والقنوط من رحمته تعالى.

٦ - الابتلاء ظاهره الخوف واليأس وباطنه الرحمة إذا اقترن بالصبر. (وبشّر الصابرين).

٧ - إفشاء السلام سنة والرد عليه واجب.

٨ - الترحيب بالضيف وإكرامه واجب.

٩ - الويل والهلاك لمن لا يستجيب لأوامر الله ويتجنب نواهيه.

١٠ - البشرى من أجمل ما يحمله الإنسان لأخيه الإنسان.

١١ - فرح الإنسان بالولد وبطول العمر أمر غريزي.

١٢ - الدهشة والاستغراب من غير المألوف من صفات الإنسان حتى الأنبياء.

١٣ - الحمل والولادة بأمر الله، وهو الذي يهب البنين والبنات.

١٤ - الأسرة أساس الاستقرار في الحياة الاجتماعية.

١٥ - إن الله جل ثناؤه محمود ممجد في صفاته وذاته مستحق لجميع المحامد.

١٦ - على المحاور أن يتلطف في العبارة ويحسن في العرض.

١٧ - المؤمن لا يقنط من فضل الله ولا ييأس من رحمته.



الحوار الاجتماعي
في
قصة يوسف [عليه السلام]

المبحث الثاني

الحوار الاجتماعي في قصة يوسف عليه السلام

العدل بين الأولاد من أهم الأمور التي دعا إليها القرآن الكريم وجعلها أساسًا من أسس الحياة النفسية والاجتماعية والطبيعية، ويتحمل الأبوان مسؤولية هذا العدل رحمة بالأولاد؛ لأن هذا من أهم أسس نشأتهم ونموهم النفسي والاجتماعي حتى ينموا نموًا قويًا سليمًا، فإذا لم يتحقق العدل بين الأولاد بالشكل الكافي المتزن، نشأ الأطفال منحرفين في مجتمعهم، لا يحسنون التآلف مع الآخرين، ولا يستطيعون التعاون أو تقديم الخدمات والتضحيات، وقد يكبر الأولاد فيحسد بعضهم بعضًا ويتعدى بعضهم على بعض، وهذا ما وضّحه القرآن في قصة يوسف وإخوته.

غيرة وحسد

دار حوار بين يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وموضوع الحوار رؤيا يوسف عليه السلام، وتأويل أبيه لها مع تحذيره من كيد الحاسدين.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ (١) لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝﴾(٢) [يوسف/الآية ٤]

---

(١) يوسف: اسم عبراني، عن النبي ﷺ: «إذا قيل من الكريم؟ فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم» (الكشاف ٢/٣٠١).

(٢) عن ابن عباس قال: كانت رؤيا الأنبياء وحيًا، وروى ابن عباس وقتادة والسدي وابن جريج والضحاك أن الأحد عشر كوكبًا هم إخوة يوسف والشمس والقمر أبواه (الطبري ١٢/١٥١ - ١١٥٢) ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية لأن ما ذكره معلوم أنه منام (الكشاف ٢/٣٠٢).

قال يوسف عليه السلام لأبيه: يا أبي، إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة، رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدة لي.

فأجاب الأب: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۞ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ [1] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ [2] يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ [3] إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ [4] حَكِيمٞ﴾ [يوسف/الآيتان ٥،٦]

قال يعقوب لابنه يوسف: لا تخبر إخوتك بما رأيت خيفة أن يحسدوك فيحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة لا تقدر على ردّها؛ فالشيطان عدوٌّ لبني آدم، وكما أراك هذه الرؤيا، كذلك يجتبيك لنفسه ويصطفيك ويعلمك الرؤى ويتم عليك فضله وإنعامه وعلى ذرية أبيك، كما أكمل النعمة على جدك وجد أبيك إبراهيم وإسحق، إنه عليم بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لخلقه.

التآمر على يوسف

وموضوع الحوار التآمر على يوسف حسدًا وبغيًا.

---

١) يجتبيك: يصطفيك، والاجتباء: الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، (الكشاف ٢/٣٠٣).

٢) أصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحائك ولا آل الحجام، ولكن أهلهما (الكشاف ٢/٣٠٣).

٣) إبراهيم وإسحق: عطف بيان لأبويك، وأراد بالأبوين الجد وأبا الجد لأنهما في حكم الأب في الأصالة (الكشاف ٢/٣٠٤).

٤) عليم: يعلم من يحق له الاجتباء، حكيم: لا يتم نعمته إلا على من يستحقها (الكشاف ٢/٣٠٤).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ(1) إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ(2) وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ(3) يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(4) ۝﴾ [يوسف/7-10].

دار حوار بين إخوة يوسف:

فقال بعضهم لبعض: والله لَيوسُفُ وبنيامينُ أحبُّ إلى أبينا منَّا، فهو يفضلهما ويحبهما على صغرهما وقليل نفعهما، إن أبانا في خطأ وخروج عن الصواب في إيثاره اثنين على عشرة، ثم قال بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو انبذوه في أرض بعيدة حتى يخلص ويصفو لنا حبُّ أبينا فيقبل علينا ثم تتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا مصلحين لأعمالكم بما يكفّرُ عنكم ما ارتكبتموه من ذنب، فقال أخٌ لهم: لا تقتلوا يوسفَ بل ألقوه في قعر بئر، يأخذه بعض المارة من

---

1) ونحن عصبة: الواو واو الحال يعني أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ،والعصبة من الناس هم عشرة فصاعداً.

2) عن قتادة قال: ذكر لنا أنه روبيل كان أكبر القوم، وهو ابن خالة يوسف، فنهاهم عن قتله (الطبري 12/156).

3) عن قتادة قال: غيابة الجب، بئر ببيت المقدس، والغيابة كل شيء غيب فهو غيابة، والجب: البئر غير المطوية (الطبري 12/106) و(ابن كثير 2/241).

4) قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنِّهِ ورقَّةِ عظمه، وبين ابنه على ضعف قوّته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، فقد احتملا امرًا عظيمًا (ابن كثير 2/241 و242).

المسافرين إلى بعض الأقطار البعيدة، فإن كان لا بدَّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك.

الكيد ليوسف

والحوار الثالث وقع بين يعقوب عليه السلام وبين إخوة يوسف وموضوعه الكيد ليوسف .

قال تعالى ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا[1] مَالَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ * أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ[2] وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١١، ١٢].

قال إخوة يوسف: لم تخافنا على يوسف؟ فأي شيء حدث لك حتى لا تأمنا عليه؟! فنحن نحبه ونشفق عليه، ونريد له الخير، أرسله معنا غدًا إلى المرعى، يشاركنا اللهوَ واللعبَ والاستباقَ ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه ومن كل أذىً يصيبه، فجاوبهم يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ﴾ [يوسف/١٣].

قال يعقوب: إنه ليؤلمني ويقضُّ مضجعي أن تذهبوا به لقلة صبري عنه، وأخاف أن يفترسه الذئب وأنتم لا تشعرون به لانشغالكم باللعب عن مراقبته وحفظه — وهنا لا ينبغي للمحاور أن يلقن الخصم الحجة فجاوبوه:

---

١) (قالوا يا أبانا) خاطبوه بذلك تحريكًا لسلسلة النسب، وتذكيرًا لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه في حفظه منهم، لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي (تنوير الأذهان ٢/٢٠٨) وقيل استعطافًا وتحريكًا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلاً إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه، واستفهموه استفهام المنكر (فتح القدير ٣/٩).

٢) قرأ أهل المدينة (يرتع) بكسر العين على معنى يفتعل من الرعي: ارتعيت فأنا ارتعي أي أرسله معنا غدًا يرتع الإبل، وقرأ أهل الكوفة (يرتعْ) بتسكين العين من قولهم: رتع فلان في حاله، إذا لهى فيه ونعم وانفقه في شهواته. قال ابن عباس: يلهو وينشط ويسعى (الطبري ١٢/١٥٨).

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ(1) وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف/١٤-١٦].

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ(2) وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ(3)﴾ [يوسف/١٧، ١٨].

---

١) قيل هو بئر ببيت المقدس، وقيل بأرض الأردن، وقيل بين مصر ومدين، وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما محذوف ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردوا عليَّ قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا تؤنسك، ودلوه في البئر فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام وهو يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام (الكشاف ٢/٢٠٧).

٢) "نستبق" نفتعل من المسابقة، وقيل: أي ننتضل، ورد في قراءة عبدالله "إنا ذهبنا ننتضل" قال الزجاج: هو نوع من المسابقة، وقال الأزهري: النضال في السهام، والرهان في الخيل والمسابقة تجمعهما، قال القشيري: "نستبق" أي في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام، وقال السدي وابن حبان: "نستبق" نشتد جريًا لنرى أينا أسبق (القرطبي ١٤٥/٩) و(فتح القدير ١١/٣).

٣) "بدم كذب" أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدم ذي كذب، مثل: "واسأل القرية" وقرأ الحسن وعائشة: "بدم كدب" بالدال غير المعجمة، أي بدم طريّ، يقال للدم الطري الكدب (القرطبي ١٤٩/٩).

قال إخوة يوسف لأبيهم : والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة شديدة البأس لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار ولا نفع لنا ولا ينبغي أن يُركن إلينا .

بعد هذا الحوار وهذه المراجعة لأبيهم، وافق أبوهم وذهبوا به، وقد عزموا له عزمًا جماعيًا لإلقائه في غور الجب، وأوحي الله إلى يوسف لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ثم رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون ليقنعوه بما يريدون. فقال لهم أبوهم فزعًا: ما لكم يا بني، وأين يوسف؟

فقالوا له: إنَّا ذهبنا نتسابق في العدو والرمي، وتركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فأكله ولم نسمع استغاثته ولا صراخه، ونحن نعلم أنك لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا صادقين فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟....وجاءوا على ثوبه بدم كاذب فجاوبهم :

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ[1] لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[2] وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف/١٨].

قال يعقوب :بل سهلت لكم أنفسكم أمرًا وزينته لكم، وليس كما زعمتم أن الذئب أكله، وسأصبر صبرًا جميلاً لا شكوى فيه، وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب.

---

١) سوّلت: من السول وهو الاسترخاء: أي سهلت وزينت.

٢) الصبر الجميل: هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى فيه إلى الخلق، وإذا كان فيه شكوى إلى الخالق يكون أجمل، لما فيه من رعاية حق العبودية، فلا يرى التأثير إلا من الله تعالى في كل باب مع أن التغافل من أخلاق الكرام، والعفو والصفح وقبول العذر من ديدن الأخيار. قال الشاعر:

إقبل معاذير من يأتيك معتذرًا ... إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا

(تنوير الأذهان ٢/ ٢١٠).

رُوي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها ،وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف، صاح بأعلى صوته فقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، ثم قال تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه"[1]





١) الكشاف ٢/٣٠٨ وتنوير الأذهان ٢/٢١٠.

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - وجوب العدل بين الأبناء حتى ينشأوا متحابين متعاونين....

٢ - اصطفاء الله عز وجل لأحد الأبناء وتفضيله عل إخوته لحكمة يعلمها هو.

٣ - الحسد أمر فطري في الإنسان حتى بين الإخوة.

٤ - الحسد قد يلجئ الإنسان للحيلة وتدبير المكائد.

٥ - من اختار الحيلة في المرة الأولى فقد تلازمه طيلة حياته، إلا من آب وتاب.

٦ - من صفات الأبناء الصالحين اللجوء للآباء طلبًا للنصح والمساعدة والاسترشاد بآرائهم وخبرتهم.

٧ - الابتلاء يحصل لجميع الناس حتى الأنبياء، ووجوب الصبر عليه.

٨ - الحكمة والعلم والقناعة والعفة والفضيلة صفات تؤهل الإنسان للحكم وتحمل المسؤولية وبها ينال سعادة الدارين.

٩ - بالشكر تدوم النعم.

١٠ - العفو عند المقدرة من شيم الكرام الصالحين.

١١ - الاتكال علىٰ الله بعد الأخذ بالأسباب من صفات العباد الصالحين.

١٢ - المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

١٣ - حرص الآباء دائمًا على أبنائهم لتجنب الحسد والعين والمكروه رغم إيمانهم بقضاء الله وقدره.

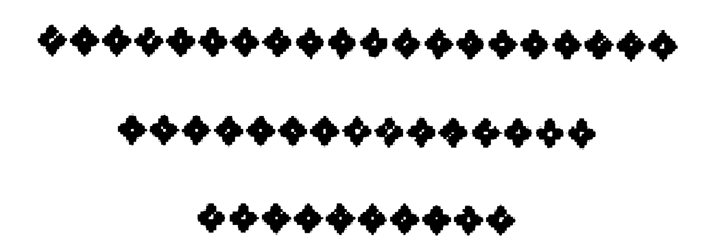
١٤ - الحيلة نوعان: نوع يستخدم للمكروه والضرر، ونوع لكشف الحقيقة دون ضرر.

١٥ - سعادة الأسرة تكمن في لمّ الشمل، والتحلي بالمحبة والتعاون وخوف بعضهم على بعض.

١٦ - الحوار بين أفراد الأسرة مطلب أساسي، ويجب أن يتصف باللين والهدوء والتعقل.

١٧ - لا ينبغي للمحاور أن يلقن الخصم الحجة.

١٨ - العفو والصفح وقبول العذر من أخلاق الكرام وديدن الأخيار.



المبحث الثالث

الحوار الاجتماعي
في
ولادة موسى [عليه السلام]

المبحث الثالث

الحوار الاجتماعي في ولادة موسى عليه السلام

ولادة موسى عليه السلام تلفت أنظار من يستقرئ القرآن، لأنها وردت في سورة واحدة هي سورة (القصص)، حيث يبدأ التمهيد للحوار بعرض قوة الحكم والسلطان، قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، علا في الأرض، واتخذ أهله شيعًا، واستضعف بني إسرائيل، فذبح أبناءهم واستحيا نساءهم وقبض على أعناقهم حذرًا من تحقق قول الكهنة: بأنه يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكه على يده[1]..

وفي مقابلها موسى الطفل الرضيع الذي لا حول له ولا قوة ولا ملجأ ولا وقاية من البشر يتحدى فرعون وجنوده فتسوقه القدرة الإلهية إلى عرين فرعون وتقتحم عليه قلب امرأته فلا يستطيع أن يدفع ما يحذره ويخشاه..

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص/١-٦].

---

(١) الكشاف ١٦٥/٣.

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان عندما أحس أن هناك خطرًا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة تعد بمئات الألوف، فسخرهم في الأعمال الشاقة الخطرة، واستذلهم وعذبهم بشتى أنواع العذاب، يذبح الذكور عند ولادتهم ويستبقي الإناث، فتضعف قوتهم، ولكن الله يريد غير ما يريده الطاغية ويقدره، فيتحدى فرعون وهامان وجنودهما بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم شيئًا، فيمنّ الله على بني إسرائيل فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين. وهذا التقديم ضروري حتى تتعلق القلوب بأحداث الحوار ومجرياته وما سينتهي إليه ومن ثم ينبض الحوار بالحياة وكأنه حي مشاهد وليس قصة من قصص التاريخ...

ثم يبدأ الحوار وأطرافه أم موسى عليه السلام وأخته، وزوجة فرعون.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ[1] إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ[2] ۞ فَٱلْتَقَطَهُۥ

(١) ذكر في الآية خوفين أوجب الله الأول ونهى عن الآخر، أما الأول فالخوف عليه من القتل لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه، وأما الثاني فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون، والفرق بين الخوف والحزن، أن الخوف: غم يلحق الإنسان لأمر متوقع أما الحزن غم يلحقه لأمر واقع (الكشاف ٣/١٦٥).

(٢) حكى الأصمعي أنه سمع جارية تقول:

استغفر الله لذنبي كله	قبّلتُ إنسانًا بغير حِلّه
مثل الغزال ناعمًا في دلّه	فانتصف الليل ولم أصله

فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك!

فقالت: أو بعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى......) الآية.=

ءَالُ فِرْعَوْنَ [1] لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[القصص/٧-٨].

ألهم الله أم موسى وأخبرها عن طريق الإلقاء في القلب أن أرضعيه ما لم تخافي عليه الطلب، فإذا خفت عليه بأن يحس به الجيران عند بكائه فألقيه في النيل أو إذا خفت حفظه وعجزت عن تدبيره، فسلميه إلينا ليكون في حفظنا وتدبيرنا ولا تخافي عليه ضيقًا ولا شدة ولا تحزني على فراقك له إنَّا رادوه إليك عن قريب ونرسله إلى فرعون وحاشيته، فجعلته في صندوق من الخشب مطلي بالقار فقذفته في النيل فوجده آل فرعون فالتقطوه وأعطوه لزوجة فرعون ليصير لهم فيما بعد عدوًا وحزنًا فيعاديهم ويحزنهم، لأن فرعون وحاشيته كانوا آثمين بالكفر والظلم.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ [2] أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص/٩].

=أي: جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين (القرطبي ٢٥٢/١٣) (أيسر التفاسير ٥٥/٤).

١) فالتقطه: أي أصابوه فأخذوه، وأصله من اللقطة، وهو ما وجد ضالاً فأخذ، والعرب تقول: لما وردت عليه فجأة من غير طلب له ولا إرادة، أحبته التقاطا، ولقيت فلانًا التقاطا، ومنه قول الراجز:

ومنهل وردته التقاطا   لم ألق ألف إذ وردته فراطا

(الطبري ٣١/٢٠).

٢) قالت آسية بنت مزاحم هذا الكلام حيث همَّ فرعون بقتله لما نتف موسى لحيته وهو رضيع تعلق به فأخذ شعرات من لحيته فتشاءم فرعون وأمر بقتله فاعتذرت آسية فقالت: هو قرة عين لي ولك لا تقتلوه فقال فرعون: قرة عين لك أما أنا فلا (أيسر التفاسير ٥٥/٤).=

قالت امرأة فرعون لزوجها: هو قرة عين لنا فلا تقتلوه — خاطبته بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده — عسى أن ينفعنا في حياتنا بالخدمة أو نحوها أو نتخذه ولدًا بالتبني، *وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا[1].

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن[2] كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[3] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ[4] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص/١٠-١١].

---

*رُوي في حديث (لو قال: هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها) وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت) [الكشاف ١٦٦/٣].

(١) روي أن نفرًا من قوم فرعون قالوا: ما نظن إلا أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر خوفًا منك فاقتله، فهمَّ فرعون بقتله.

فقالت آسية: إنه ليس من أولاد بني إسرائيل.

فقيل لها: وما يدريك؟

فقالت: إن نساء بني إسرائيل يشفقن على أولادهن ويكتمنهم مخافة أن تقتلهم، فكيف يظن بالوالدة أنها تلقي الوليد بيدها في البحر؟ فاستوهبته لما رأت عليه من دلائل النجابة فتركه، وسمته آسية موسى، لأن تابوته وجد بين الماء والشجر، والماء في لغتهم (مو) والشجر (شا) لتنوير الأذهان ١٤٠/٣ و١٤١].

(٢) إن مخففة من إنّ الثقيلة واسمها محذوف ومعناها: أي أنها (الجلالين/٥٠٧).

(٣) قصيه: أي اتبعي أثر موسى، تقول قصصت آثار القوم، إذا اتبعت آثارهم (الطبري ٣٨/٢٠).

(٤) قرئ فبصرت بالكسر، يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة بمعنى عن بعد، وقرئ عن جانب وعن جنب، والجنب: الجانب، يقال قعد إلى جنبه وإلى جانبه: أي إليه نظرت مزورة ومتجانفة مخاتلة. وهم لا يحسون بأنها أخته (الكشاف ١٦٧/٣).

وصار قلب أم موسى خاليًا من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى، وطار عقلها منشدة الوجد والحزن حين علمت بوقوعه في يد فرعون لولا أن ثبتها الله وألهمها الصبر، لتكون من المصدقين بوعد الله برده عليها..

وقالت لأخته: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره وانظري ماذا يفعلون به. فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته، ومنع الله موسى أن يرضع من المرضعات، ويشرب لبن غير أمه، وبقي أيامًا كلما أتي بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر، فخرجوا به يبحثون على مرضعة خارج القصر فرأوا أخته..

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ[1] * فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص/١٢-١٣].

فقالت أخته عند رؤيته: هل أدلكم على مرضعة تكفله وترعاه ولا يقصرون في إرضاعه وتربيته[2] – فأعاده الله إلى أمه تحقيقًا للوعد كي تسعد وتهنأ

---

(١) عن السدي قال: لما قالت أخته (هل أدلكم.. الآية) أخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام، فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت هم للملك ناصحون (الطبري ٢٠/٤١) القرطبي ٢٥٧/١٣.

(٢) روي أنهم قالوا لها: من يكفل؟ قالت: أمي، قالوا: الأمك لبن؟ قالت: نعم هي امرأة قتل ولدها، فأحب شيء إليها أن تجد صغيرًا ترضعه، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريحها قبل ثديها، فقال فرعون: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها، وأجرى عليها أجرتها، فرجعت إلى بيتها من يومها مسرورة ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدي إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر، فكانوا يعطون الأجرة كل يوم دينارًا، ولم يكن بين إلقائها إياه في البحر، وبين رده إليها إلا مقدار ما يصبر الولد فيه عن=

بوصول ولدها إليها ولا تحزن بفراقه ولتتحقق من صدق ذلك وأن الله حافظه من فرعون وجاعله من المرسلين، ولكن آل فرعون لا يعلمون أن وعد الله حقّ.

حوار موسى عليه السلام في مدين

خرج موسى عليه السلام من مصر على عجل ولم يتزود للطريق ولم يعد للسفر عدته وتوجه تلقاء مدين، ورد الماء فوجد عليه جماعات كثيرة من الرعاة يسقون ماشيتهم، ووجد من دونه امرأتين شريفتين عزيزتين كريمتين تذودان غنمهما عن الورد، وتحبسانها بعيدًا عن الحوض انتظارًا لأن يسقي أولو القوة من الرعاة فكان من حواره معهما ثم مع أبيهما ما سنطلع عليه في الصفحات المقبلة - إن شاء الله- وقد ورد هذا الحوار في موضع واحد من القرآن وهو سورة (القصص)[1] وأطراف الحوار موسى عليه السلام وشعيب وابنتاه.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ[2] قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ

=الوالدة، وأبعد من قال مكث ثمان ليال لا يقبل ثديًا. (تنوير الأذهان ١٤١/٣ و١٤٢ – (صفوة التفاسير ٤٢٦/٢).

فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الإرضاع، ولكنه مال حربي كانت تأخذه على وجه الاستباحة (الكشاف ١٦٨/٣ – القرطبي ٢٥٨/١٣).

(١) القصص: ٢٢- ٢٨.

(٢) لم يصرف اسم مدين لأنها اسم بلدة معروفة، كذلك تفعل العرب بأسماء البلاد المعروفة ومنه قول الشاعر:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا ... والعصم من شعف العقول الفادر»

ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ[1] قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ [القصص/٢٣-٢٣].

قصد موسى عليه السلام بوجهه ناحية مدين وصار متوجهًا إلى جانبها قال: لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي، ولما وصل موسى إلى مدين وجد على بئر في طرف المدينة جماعة كثيفة من الرعاة يسقون مواشيهم ووجد سوى الرعاة امرأتين في مكان أسفل منهم تكفان غنمهما عن الماء فبدأ الحوار من موسى بلفظ موجز معجز.

قال موسى: ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟

فأجابتاه:

﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ [القصص/٢٣].

قالت البنتان: من عادتنا التأني، فلا نسقي مواشينا حتى يصرف الرعاء مواشيهم ويرجعوا، لأنا لا نريد مخالطة الرجال، فإذا انصرفوا سقينا من فضل مواشيهم،

=فمدين ممنوعة من الصرف لأنها علم على بلدة، ففيها العلمية والتأنيث (الطبري ٥٢/٢٠) ومدين قرية شعيب عليه السلام، سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان وكان موسى لا يعرف إليها الطريق، قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه (الكشاف ١٧٠/٢).

(١) تذودان: أي تحبسان غنمهما، يقال: ذاد فلان غنمه وماشيته: إذا اراد شيئًا من ذلك يشذ ويذهب، فرده ومنعه يذودها ذودًا، وقال بعض اهل العربية من الكوفيين، لا يجوز أن يقال: ذدت الرجل بمعنى: حبسته، إنما يقال ذلك للغنم والإبل. وقد روي عن النبي ﷺ: (إني لبعقر حوضي أذود الناس عنه بعصاي) فقد جعل الذود ﷺ في الناس، ومنه قول الشاعر:

وقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصا تذود

[الطبري ٥٥/٢٠]

وقيل: الذود المزاحمة على الماء، وقيل: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، وقيل تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما [الكشاف ١٧٠/٢].

Tragacanth "القتـــاد"

القتاد نبات صلب له شوك كالإبر من الفصيلة القرنية ومنه يستخرج أجود الصمغ، وفى المثل من دونه خرط القتاد يضرب للشئ الذى لا ينال إلا بمشقة عظيمة.

(المعجم الوجيز صـــ ٤٩٠)

وأبونا رجل كبير السن لا يستطيع أن يخرج وأن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا[1] ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص/٢٤].

فسقى موسى لهما ماشيتهما رحمةً بهما، وطلبًا لوجه الله تعالى ثم تنحى جانبًا فجلس تحت ظل شجرة وتوجه إلى ربه يناجيه بتواضع كبير وأدب جم.

قال موسى: يا ربِّ، إني محتاج إلى فضلك وإحسانك، فأي شيء أنزلته إليَّ من خير قليل أو كثير أسد به جوعي محتاج إليه وسائل إياه – ولما كان موسى عليه السلام جائعًا سأل من الله ما يأكل، ولم يسأل من الناس(٢).

---

(١) روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون. قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم. أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح [مختصر ابن كثير ٩/٣ و١٠] وروي أنه سألهم دلوًا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروي غنمهما وأصدرهما، وروى أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما، وقيل كانت بئرًا أخرى عليها الصخرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة الملهوف [الكشاف ٣/ ١٧٠].

(٢) روي أن الجاريتين عندما رجعتا إلى أبيهما قال لهما: ما أعجلكما. قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا، ثم تولى إلى الظل، (فقال: ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير) فقال أبوهما: هذا رجل جائع، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لنا (تنوير الأذهان ٣/١٤٥) قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين حتى سقط نعل قدميه، وجلس في الظل – وهو صفوة الله من خلقه – وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة [الرازي ٢٤/٢٤٠ نقلاً عن صفوة التفاسير ٢/٤٣١] مختصر ابن كثير ٣/ ١٠.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ[1] قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[2] [القصص/٢٥].

وكما هي عادة الأبكار جاءته إحداهما تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها..

فقالت: إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ[3] وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص/٢٥].

فلما جاءه موسى أخبره بما جرى عليه وما كان من أمره وسبب هربه من مصر..

فقال له الرجل الصالح: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه ولسنا في مملكته وقد نجاك الله من كيد المجرمين.

---

(١) قال عمر رضي الله عنه (جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة) أي ليست الجريئة من النساء السليطة الجسور. أخرجه ابن أبي حاتم وإسناده صحيح [مختصر ابن كثير ٣/١٠].

(٢) فاجابها منكرًا في نفسه اخذ الأجرة كانها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها فمشت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقيها فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق ففعلت إلى أن جاء أباها وهو شعيب عليه السلام وعنده عشاء، فقال: اجلس فتمشى، قال: أخاف أن يكون عوضًا لما سقيت لهما، وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل الخير عوضًا، قال: لا، عادتي وعادة آبائي. نقري الضيف ونطعم الطعام، فأكل وأخبره بحاله [الجلالين ٥١٠ و ٥١١].

(٣) اختلف المفسرون في الرجل من هو على أقوال: أحدهما قول الحسن البصري وكثير من المفسرين انه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين. والثاني: إنه كان ابن أخي شعيب. والثالث: رجل مؤمن من قوم شعيب، والرابع: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد). والخامس عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى (ثيري) صاحب مدين والصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر صحيح.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1] [القصص/٢٦]..

قالت إحدى البنتين: يا أبي اتخذ موسى أجيرًا لرعي الغنم والقيام بأمرها وسقايتها، إن أفضل من تستأجره من كان قويًا أمينًا، لذا رغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ[2] ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص/٢٧].

قال الرجل الصالح: يا موسى إني أريد أن أزوجك واحدة من بنتي هاتين(٣) بشرط أن تكون أجيرًا لي ثمان سنين ترعى فيها الغنم، فإن أتممت عشر سنين

---

(١) روي أن شعيبًا قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الحجر عن رأس البئر و نزع الدلو الكبير، وأنه خفض رأسه عند الدعوة، ولم ينظر إلى وجهي فخفض بصره ولم ينظر إلي، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، وقد خصت هاتين الخصلتين بالذكر. لأنها كانت تحتاج إليهما في ذلك الوقت أما القوة فلسقي الماء، وأما الأمانة فلحفظ البصر وصيانة النفس عنها، لذا رغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته لتنوير الأذهان ١٤٥/٢ - ١٤٦ - صفوة التفاسير ٤٣٢/٢، وروي أنها قالت: فقال لي كوني من ورائي، فإذا اختلفت عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه – روي هذا القول عن عمر وابن عباس وشريح القاضي وقتادة ومحمد بن إسحق وغيرهم [مختصر ابن كثير ١١/٢].

(٢) جاء في الحديث عن عتبة بن المنذر السلمي مرفوعاً "أن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه" أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجة.

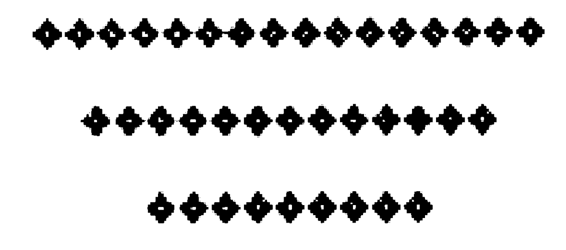
(٣) في هذا دليل على جواز عرض الولي بنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ﷺ ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ، فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على=

في الخدمة والعمل فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك ولا إلزامًا، ولا أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر، ولذلك خيرتك في المدة، ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لين الجانب، وفيًا بالعهد.

فجاوبه موسى:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ[1] قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص٢٨].

قال موسى: إن الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعًا لا نخرج عنه، وأي المدتين أديتهما لك فلا إثم ولا حرج عليّ، والله شاهد وحفيظ على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه.



=الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح قال ابن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر [القرطبي ١٢/ ٢٧١].

(١) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته، فقال: أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل. أخرجه البخاري.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: (أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما) أخرجه البزار. وقال: لا نعلم= =يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد. قال السيوطي سنده ضعيف، وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران وهو ضعيف.

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - الإنسان مهما بلغ من قوة وجبروت ينهار أمام قوة الله ومشيئته.

٢ - ضعف الإنسان المؤمن يتحول إلى قوة بمشيئة الله.

٣ - الخوف أمر فطري لدى الإنسان.

٤ - ما يظنه الإنسان ضررًا وخطرًا ربما منه يأتي الخير والفرج.

٥ - إن الله لا يخلف وعده.

٦ - من يتقِّ الله يجعلْ له مخرجًا.

٧ - غض البصر والحياء من الأمور المحببة لدى الرجل والمرأة.

٨ - قدرة الرجل وأمانته من الصفات المطلوبة لدى المستخدم.

٩ - الالتزام بالعهود والمواثيق من صفات المؤمنين الصالحين.

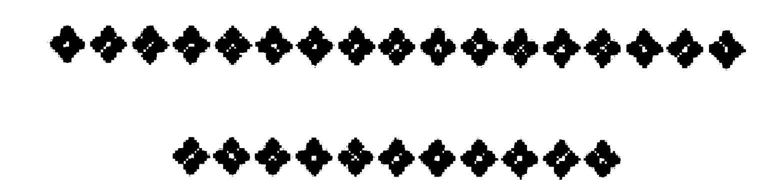
١٠ -من يفعل الخير لا يعدم جوازيه.

١١ -على المحاور أن يبدأ حديثه بكلام شيق حتى تتآلف القلوب بأحداث الحوار ومجرياته وما سينتهي إليه ومن ثم ينبض الحوار بالحياة.

١٢ -الفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق الإنسان لأمر متوقع، أما الحزن غم يلحق لأمر واقع.

١٣ -إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.

١٤ -من استأجر أجيرًا يجب أن يحسن معاملته ويلين له الجانب وأن يوفيه حقه.



المبحث الرابع

الحوار الاجتماعي
في
ولادة مريم وولادة عيسى
[عليهما السلام]

المبحث الرابع

الحوار الاجتماعي في ولادة مريم وولادة عيسى عليهما السلام

الحوار في ولادة مريم

ورد الحوار في ولادة مريم في سورة آل عمران، وأطراف الحوار امرأة عمران ثم مريم وزكريا عليهم السلام.

قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ[1] رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ[2] لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا[3] فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ[4]﴾ [آل عمران/٣٥ و٣٦].

---

(١) امرأة عمران: هي أم مريم عليها السلام وهي (حنة بنت فاقوذ)، وكانت امرأة لا تحمل فرأت يومًا طائرًا يزق فرخه، فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولدًا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحقق الحمل نذرت أن يكون محررًا أي خالصًا مفرغًا للعبادة لخدمة بيت المقدس (مختصر ابن كثير ٧٨/١).

(٢) نذرت: أي حبسته على خدمتك وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة في خدمة كل شيء سواك، مفرغة لك خاصة، ولا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا.

(٣) ورد في معنى محررًا عدة أقوال نذكر منها: ١ - مجاهد: خادمًا للبيعة ٢ - الشعبي: فرغته للعبادة ٣ - قتادة: نذرت ولدها للكنيسة (الطبري ٢٣٥/٢).

(٤) عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: لما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسه إياه إلا مريم وابنها! ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجه البخاري ومسلم.

قالت امرأة عمران تناجي ربها: يا ربّ! إني نذرت لعبادتك وطاعتك وخدمة بيتك ما أحمله في بطني مخلصًا للعبادة والخدمة، فأنت السميع لدعائي العليم بنيتي، فلما ولدتها بنتًا تحسرت واعتذرت.، وقالت: يا ربّ إنها أنثى، والأنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس - والله أعلم بمكانة الأنثى التي وضعتها وليس الذكر الذي طلبت وتمنيت كالأنثى التي وضعت بل هي خير وأفضل - ثم تابعت امراة عمران كلامها فقالت: إني سمّيتها "مريم"، وإني أجيرها بحفظك ورعايتك من شر الشيطان الرجيم.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران/٣٧].

فجاوبته:

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] [آل عمران/٣٧].

---

(١) عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا، فأتى فاطمة فقال "يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟" قالت: لا والله بأبي أنت وأمي.

فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها، وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله | على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسنًا أو -حسينًا - إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها.

فقالت: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فجئت به لك.

قال: "هلمي يا بنية"، =

قالت مريم: هو من عند الله الذي يرزق الناس جميعًا، رزقًا واسعًا بغير جهد ولا تعب.

الحوار في ولادة عيسى عليه السلام

الذي يطيل النظر في هدي القرآن يرى أن الحوار في ولادة عيسى عليه السلام ورد في سورتين: السورة الأولى سورة آل عمران، والسورة الثانية سورة مريم.

قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ

=قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله، حمدت الله و صليت على نبيه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه حمد الله، وقال: "من أين لك هذا يا بنية"؟

قالت: يا أبت: (هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب).

فحمد الله وقال: "الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئًا وسئلت عنه، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ و أكل علي وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعًا.

قالت: وبقيت الجفنة كما هي. قالت: (فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا) رواه الحافظ أبو يعلى.

ٱلْعَٰلَمِينَ(1) * يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ(2) وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران/42-44].

قالت الملائكة: يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصّك بالكرامات، وخدمة بيت المقدس، وبرأك من العيوب الحسية والمعنوية، واختارك لتكوني مظهر قدرته تعالى في إنجاب ولد بدون أب.

يا مريم: أطيعي ربك وتذللي له والزمي عبادته وطاعته شكرًا على اصطفائه، فصلي لله مع المصلين.

هذا من الأنباء المغيبة والأخبار المهمة وما كنت حاضرًا لديهم حين اختصموا وتنافسوا على كفالة مريم حين ألقوا بسهامهم للقرعة كل يريدها في كنفه ورعايته، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها(3).

---

(1) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط" رواه عبد الرزاق وأخرجه مسلم بنحوه. وقال ﷺ: "سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة= فرعون"، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "كمل من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة" أخرجه ابن عساكر.

(2) ذكر عدة معان لقوله تعالى: (يا مريم اقنتي لربك) نذكر منها:

1 - قال بعضهم: أطيلي الركوع .

2 - مجاهد: أطيلي القنوت قال: لما قيل لها ذلك قامت حتى ورم كعباها

3 - الأوزاعي: كانت تقوم حتى يسيل القيح من قدميها 4 - قال آخرون: معناه: أخلصي لربك (الطبري 3/265).

(3) الطبري 6/351.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ[1] عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا[2] وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران/٤٥ و٤٦].

قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب، اسمه عيسى ولقبه المسيح، وسيكون سيدًا ومعظمًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين عند الله يوم القيامة، ويكلم الناس حال الطفولة وحال الكهولة، وهو من الكاملين في التقى والصلاح الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران/٤٧].

---

(١) ذكر في سبب تسميته المسيح عدة أقوال نذكر منها: ١ - بعض السلف: لكثرة سياحته ٢ - لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما ٣ - لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى (مختصر ابن كثير ٢٨٣/١).

(٢) يكلم الناس طفلاً في المهد، دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة على نبوته، وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه بوحي الله الذي يوحيه إليه، وأمره ونهيه، وما تقول عليه من كتابه، وإنما أخبر الله ﷻ عباده بذلك من أمر المسيح، وأنه كذلك كان وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخًا، احتجاجًا به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى بالباطل، وأنه كان في معاناة أشياء مولودًا طفلاً، ثم كهلاً يتقلب في الأحداث، ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام، من صغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه، كان ذلك غير جائز عليه، فكذب بذلك ما قاله الوفد من أهل نجران الذين حاجوا رسول الله ﷺ فيه، واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ، وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم، إلا ما خصه به من الكرامة التي أبانه بها منهم (الطبري ٢٧٢/٣).

قالت مريم: يا رب كيف يأتيني الولد وليس لي زوج؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران/٤٨ و٤٩].

قال الملَك: مثل هذا الخلق العجيب يكون أمر الله الذي لا يعجزه شيء إذا أراد شيئًا حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب ومن غير ريث ولا إبطاء.

كما ورد الحوار في مولد عيسى عليه السلام في سورة مريم:

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ(1) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا(2) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم/١٦-١٨].

واذكر يا محمد في القرآن خبر مريم بنت عمران وقصتها، حيث اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله، حيث جعلنا بينها وبين أهلها سترًا يسترها وحاجزًا فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام، فتصور لها في صورة بشر تام الخلقة ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة

---

(1) النبذ الطرح والرمي، قال الله سبحانه (فنبذوه وراء ظهورهم) والمعنى: أنها تنحت وتباعدت. قال ابن قتيبة: اعتزلت، وقيل انفردت، والمعاني متقاربة واختلفوا في سبب انتباذها، فقيل لأجل أن تعبد الله سبحانه، وقيل لتتطهر من حيضها (فتح القدير ٣/٣٢٧).

(2) الروح: جبريل عليه السلام، لأن الدين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبةً له وتقريبًا كما تقول لحبيبك أنت روحي، وقيل لأنه سبب لما فيه روح العباد (الكشاف ٢/٥٠٥).

عيسى عليه السلام من غير أب إلا أن عفافها وورعها جعلاها تتعوذ بالله منه على الرغم من صورته الجميلة الفائقة في الحسن فقالت بعد فزعها منه خشية أن يكون أراد بها سوءاً: إني أستجير وأحتمي والتجئ بالرحمن منك أن تنال مني ما حرّم الله عليك إن كنت تقيًا، تتقي محارمه فاتركني ولا تؤذني:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم/١٩].

قال جبريل عليه السلام: ما أنا إلا رسول، ولست ممن تظنين ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر، أرسلت من عند الله ليهب لك غلامًا مبرأ من العيوب طاهرًا من الذنوب.

فجاوبته:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1] [مريم/٢٠].

قالت مريم: كيف يكون لي غلام؟ ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الزّنا ولا الفجور؟

فجاوبها الملك:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2] [مريم/٢١].

---

(١) البغي: الفاجرة التي تبغي الرجال قال المبرد: هي من فعول بغوى، أدغمت الواو في الياء. وقال ابن جني: من فعيل. (الكشاف ٢/٥٠٥).

(٢) قال الإمام مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني ان أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما=

قال جبريل عليه السلام: إن الله تعالى قد قال وأمر أن يوجد منك غلام وإن لم يكن لك زوج، فإنه يفعل ما يشاء وذلك عليه يسير، وانتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم/٢٢-٢٣].

فحملت به واعتزلت قومها والجنين المبارك في بطنها في مكان بعيد عن أهلها، فألجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة لتتشبث به أثناء الولادة،

=في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص (أخرجه ابن أبي حاتم) واختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج، عن ابن عباس: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، والمشهور الظاهر، أنها حملت كما تحمل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرّض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ.

قالت: وما هو؟ .

قال: هل يكون شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟

قالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقها من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم.

فصدَّقها، وسلّم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانًا قصيًا، أي قاصيًا منهم بعيدًا عنهم لئلا تراهم ولا يروها. (مختصر ابن كثير ٢/٤٤٨).

وقالت: يا ليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا ولم أُخلقْ ولم ألُ شيئًا يذكر، وهنا يبدأ الحوار بينها وبين ولدها بعد ولادته مباشرة ليطيب قلبها ويزيل الوحشة عنها.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ[1] أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا[2] * وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ[3] عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا * فَكُلِي وَٱشۡرَبِي[4] وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ[5] فَإِمَّا تَرَيِنَّ

---

(١) اختلفت القراءات في قراءة ذلك على عدة قراءات نذكر منها:

١ - عامة قراء الحجاز والعراق: (فناداها من تحتها) بمعنى: فناداها جبرائيل من بين يديها، أو عيسى وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولدته.

٢ - قرأ أهل الكوفة والبصرة: (فنادها مَنْ تَحتَها) بفتح التامين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أن الذي تحتها عيسى (الطبري ١٦/٦٧).

(٢) اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى (سريا) على عدة أقوال نذكر منها:

١ - البراء بن عازب: الجدول.

٢ - ابن عباس: هو نهر عيسى.

٣ - مجاهد: نهر بالسريانية.

٤ - الحسن: عيسى نفسه.

وأولى الأقوال بالصواب الجدول، (الطبري ١٦/٧١).

(٣) اختلفت القراءة في قراءة قوله (تساقط) على عدة قراءات نذكر منها: ١ - عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة (تساقط) بالتاء من تساقط وتشديد الشين بمعنى: تتساقط عليك النخلة رطبًا جنيًا، ثم تدغم إحدى التامين في الأخرى فتشدد. ٢ - بعض قراء الكوفة (تساقطُ) بالتاء وتخفيف السين. ٣ - البراء بن عازب: (يساقط) فيكون المعنى وهزي إليك بجذع النخلة يتساقط الجذع عليك رطبًا جنيًا. ٤ - آخرون (تُسقِط) بضم التاء وإسقاط الألف فيكون المعنى: تسقط النخلة عليك رطبًا جنيًا، والصواب أن القراءات الثلاث الأولى قراءات متقاربة، قرأ بكل واحدة منهن قراء أهل معرفة بالقرآن، فبأي قراءة قرأ فهو صحيح (الطبري ١٦/٧٢).

(٤) قدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها لشرب الماء.

(٥) مأخوذ من القر والقرة وهما البرد، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح، وقيل معناه نامي (فتح القدير ٣/٣٢٩).

مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا[1] فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم/٢٤-٢٦].

قال عيسى عليه السلام:

لا تحزني فقد جعل الله لك جدولاً صغيرًا يجري أمامك وحركي وأميلي إليك جذع النخلة، يسقط عليك رطبًا شهيًا طريًا فكلي منه كما تشائين، واشربي من هذا الماء العذب النمير وطيبي نفسًا وأبعدي عنك الأحزان، فإن رأيت أحدًا من الناس وسألك عن أمرك وأمر ولدك، فأشيري إليهم أنك نذرت السكوت والصمت فلن أكلم أحدًا من الناس – وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء فليعلم المحاور أن السكوت عن السَّفيه المجادل واجب فإن من أذلّ الناس سفيه لم يجد مسافهًا؛ وما قدع السفيه المجادل بمثل الإعراض، وما أطلق عنانه بمثل العراض، فسورة السفيه تكسرها الحلم والنار المضرمة يطفئها الماء، فسورة السفيه كالنَّار المضرمة لا يطفئها إلا الحلم كما لا يطفئ النارَ إلا الماءُ، والنارُ تأكلُ بعضَها إن لم تجدْ ما تأكله.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا[2] ۝ يَٰٓأُخْتَ

(١) فسر الصوم بالصمت وأولى من هذا أن يكون صوم النذر في دينهم مستلزمًا للصمت وعدم الكلام، والسياق دال عليه ظاهر فيه، وما زال النصارى يعتبرون الصمت عبادة فيصمتون دقائق على أرواح موتاهم، ونسخ الإسلام هذا كما في الصحيح عن ابن عباس قام النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: (مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه) أخرجه البخاري.

(٢) ورد فيها عدة أقوال نذكر منها: ١ - أبو عبيدة والأخفش: العجيب النادر. ٢ - قطرب: الفري الجديد من الأسقية: أي جئت بأمر بديع جديد لم تسبقي إليه. ٣ - سعيد بن مسعدة: الفري=

هَٰرُونَ[1] مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم/٢٧-٢٨].

أخذت مريم ولدها وأتت به قومها تحمله، فلما رأوها وابنها، أعظموا أمرها واستنكروه، وقالوا: يا مريم لقد جئت شيئًا عظيمًا منكرًا، يا شبيهة هارون بالطهر والعفاف والصلاح والعبادة، ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمُّك بالبغي فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟.

فلم تجبهم وأشارت إلى عيسى عليه السلام ليكلموه ويسألوه:

﴿فأشارت إليه﴾

فجاوبوها:

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ[2] فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم/٢٩].

قال قومها لها متهكمين متعجبين: كيف نكلم طفلاً رضيعًا في المهد، فجاوبهم عيسى عليه السلام:

=المختلق المفتعل، يقال فريت وأفريت بمعنى واحد والولد من الزنا كالسيء المفترى. ٤ - مجاهد: الفري: العظيم (فتح القدير ٣/٣٣١).

(١) ورد فيها عدة أقوال نذكر منها: ١ - هارون كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل. ٢ - قيل هو أخو موسى صلوات الله عليهما. ٣ - السدي: كانت من أولاده وإنما قيل يا أخت هارون كما يقال يا أخا همدان: أي يا أحدًا منهم. ٤ - وقيل رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به: أي كنت عندنا مثله في الصلاح، (الكشاف ٢/٥٠٨).

(٢) قيل إن كان هناك تامة ويكون المعنى حدث ووجد.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا[1] أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم/٣٠-٣٣].

قال عيسى عليه السلام لقومه: أنا عبد الله الذي له صفات الكمال لا أعبد غيره خلقني بقدرته من غير أب، قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل، ويجعلني نبيًا، ويجعلني نفاعًا للناس في البركة والخير حيثما كنت وأينما حللت، وأمرني بالمحافظة على الصلاة والزكاة ما دمت حيًا في الدنيا، وجعلني بارًا بوالدتي محسنًا لها مطيعًا، ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا متعاظمًا على أحد، ولا شقيًا في حياتي فاعق والدتي ولا أبر بها، فسلام الله وأمنته عليّ في يوم ولادتي ويوم مماتي ويوم خروجي حيًا من قبري فلا يقدر أحد على ضري. وهكذا أعلن عليه السلام عبوديته لله، فليس هو إلهًا، ولا ابن إله ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما هو عبد الله ورسوله يحيا ويموت مثل سائر البشر خلقه الله من أم بلا أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ذلك القول الحق في عيسى بن مريم.





---

(١) اختلف أهل التأويل في معنى (مباركًا) على عدة أقوال نذكر منها: ١ - مجاهد: نفاعا. ٢ - آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٣ - آخرون: جعلني معلمًا للخير أينما كنت (الطبري ١٦/٨٠ و٨١).

الدروس والعبر المستفادة من القصة

١ - الغرض من كل حوار هو الوصول إلى الحقيقة.

٢ - ادعوني أستجب لكم.

٣ - النذر في أمور الخير مقبول مع وجوب الوفاء به.

٤ - لا فرق للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بين الذكر والأنثى.

٥ - إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

٦ - وجوب الإيمان بقدرة الله في الخلق. (إن الله إذا أراد للشيء أن يكون، فيقول له: كن فيكون.)

٧ - الإيمان بالكرامات التي خص الله بها عباده الصالحين.

٨ - اختار الله مريم وبرأها من العيوب الحسية والمعنوية، واختارها لتكون مثالاً على قدرته في إنجاب ولد بدون أب.

٩ - أمر الله لا يعجزه شيء إذا أراد أمرًا حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب ومن غير ريث ولا إبطاء.

١٠ -يكره مجادلة السفهاء، لذا على المحاور أن يعرض عن السفيه المجادل.

١١ -من أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا، وأفضل علاج له الإعراض عنه.

١٢ - القول الحق في عيسى بن مريم أنه عبد الله ورسوله، يحيا ويموت مثل سائر البشر، خلقه الله من أم بلا أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة.

١٣ -أعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله فليس هو إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى..

وقفة وتأمل

بعد اطلاعنا على هذه الحوارات، واستنباط ما أمكننا استنباطه من دروس وعبر، يجدر بنا أن نقف وقفة تأمل نستقرئ فيها مدى استفادتنا من هذا الحوار أو ذلك، سيما أن أحداثها وقعت في عصور تختلف عن عصرنا بكل المقاييس والموازين، فلا شك أن المتأمل والمتمعن بما جاء فيها سيلحظ الأمور التالية:

١ - أن الأسرة هي اللبنة الأولى والخلية الأساسية في المجتمع، وكي تلعب الدور المنوط بها، لا بد أن يسود أفرادها روح المحبة والتعاون والتعاطف والاحترام وأن يؤثر كل فرد غيره على نفسه.

٢ - ولكن يحدث في كثير من الأحيان أن يشذ أحدهم أو بعضهم عن هذه القاعدة، كأن يكون أحد أفرادها شاذًا منحرفًا، أو مبغضًا حاسدًا، أو عاقًا عاصيًا، ولا يقتصر ذلك على أسرة ذات مواصفات خاصة، بل يتعداه إلى أسر قد يكون فيها الأب رجلاً صالحًا والأم كذلك، وقد يكون الأب نبيًا ورسولاً، وهذا ما لمسناه في القصص التي بين أيدينا. فكيف تعامل كل نبي مع ابنه أو أبيه أو زوجته أو أخيه؟ هل تركوهم وشأنهم وأهملوا أمرهم؟ أو فعلوا ما يمليه الواجب عليهم؟

فها هو نوح عليه السلام رغم عقوق ولده دعاه للركوب في السفينة أثناء الطوفان، عله يتوب بعد ذلك، ويثوب إلى رشده.

وها هو إبراهيم عليه السلام ما فتئ يدعو أباه آزر علّه يقلع عن عبادة الأصنام وبيعها في الأسواق بعد صنعها، ويلتحق بركب الموحدين المؤمنين الصالحين!

وها هو يعقوب عليه السلام ما انفك يدعو أبناءه العشرة ليتجنبوا الكيد ليوسف وأخيه بنيامين بعد أن أضمروا لهما الضغينة والحسد والبغضاء.

وكذلك لوط عليه السلام خرج وعائلته من القرية ومن بينهم زوجته بعد تلقي إشارة الهلاك لقومه من الملائكة.

وأخيرًا ها هو خاتم الأنبياء محمد ﷺ عزٌ عليه أن يرى عمّه أبا طالب وقد امتلأ قلبه بنور الإسلام وهديه.

فهل نجحت مساعيهم وأتت جهودهم أكلها؟ فواقع الحال يقول عكس ذلك:

فنوح عليه السلام لم يفلح في إنقاذ ابنه من الغرق لأنه كان من الكافرين.

وإبراهيم عليه السلام رغم دعوته المستمرة دون كلل أو ملل لم يفلح في ضم أبيه لصفوف الموحدين المؤمنين حيث أصرٌ الأب على عناده وكفره..

ولوط عليه السلام فقد زوجته لأنها كانت من الغابرين.

ويعقوب عليه السلام لم يستطع استئصال الحقد والكره والحسد من نفوس أبنائه حتى شاء الله والتأم شمل الأسرة فكان التسامح والعفو من يوسف لإخوته، وبذلك يكون قد ضرب المثل الأعلى في الكرم والعفو عند المقدرة.

ومحمد ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وبنفسه حسرة على عمّه أبي طالب الذي لم يهتد قلبه إلى الإسلام ونوره.

والسؤال الذي يطرح نفسه في نهاية المطاف: هل يعني شعور الإنسان بالفشل وهو يحاور أباه أو ابنه أو أخته أو أخاه أو أي قريب من أقاربه أن ييأس أو يقنط أو يتوقف لحظة واحدة عن حوارهم؟

الجواب بالطبع: لا ، فعلى المرء منا واجب ومسؤولية بالاستمرار بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما دام فيه روح وقلب ينبض، فالرسول ﷺ يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته......

وإذا أردنا أن ننجح في مسعانا وتأتي جهودنا أكلها ، فأمامنا أسلوب وحيد هو أسلوب الحوار المستمر المقرون باللين والهدوء والألفاظ المختصرة المختارة، فإن كان هناك استجابة فبها ونعمت، وإن كان عكس ذلك فقد يكون في الأمر حكمة لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى.

فبالحوار، والحوار وحده نستطيع أن نحل كثيرًا من مشاكلنا ، وعلينا الاستمرار دون يأس أو ملل حتى يقضي الله أمرًا كان مقضيًّا.

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

الفصل الرابع

الحوار السياسي

- تمهيد:
- المبحث الأول: الحوار السياسي في قصة يوسف عليه السلام
- المبحث الثاني: الحوار السياسي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون
- المبحث الثالث: الحوار السياسي في قصة سليمان عليه السلام
- المبحث الرابع: الحوار السياسي في قصة ذي القرنين

الفصل الرابع

الحوار السياسي

تمهيد

رسم القرآن شكل السلطة والمجتمع بصورة متكاملة محققًا بذلك الصلاح للمجتمع والفرد في نفس الوقت، كما قدم تشريعاتٍ شاملةً لجميع أمور المجتمع سواء فيما يتعلق بتنظيم السلطة داخل هذا المجتمع أو فيما يتعلق بعلاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى أو تنظيم شئون الحرب والسلام[1].

ولم يتعرض القرآن إلى تفاصيل الدولة وأساليب الحكم فيها، وإنما اقتصر على تحديد الأسس الثابتة والمبادئ العامة التي يسترشد بها في هذا المجال. وهنا تكمن عظمة الإسلام كدين يصلح لكل زمان ومكان، فهو يعلم أنه ستجد أمور في حياة الناس، وأن الحياة لن تبقى على صورتها يوم نزل هذا الدين، لذلك نجد فيه نوعين من التشريعات، تشريعات مفصلة تفصيلاً كاملاً ودقيقًا وذلك للأمور التي لا تتغير ولا تستجد في حياة الناس كشعائر التعبد والحدود وعلاقات الجنسين، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين. وتشريعات مجملة تتناول الأصول العامة دون التفصيلات للأمور التي تتغير في حياة البشر بتغير ظروفهم وأحوالهم، ومدى قيامهم بعمارة الأرض واستغلال الطاقات التي سخرها الله للإنسان، وذلك كالنواحي السياسية والاقتصادية التي تتغير صورتها على الدوام وعلى مرّ الأجيال مع ضرورة الالتزام بالمبادئ والأحكام العامة التي وضعها في هذا المجال، فالصورة السياسية مثلاً تتغير، ولكن الحكم بما أنزل الله لا يجوز أن يتغير، وكذلك مبدأ الشورى والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك يتحقق

---

(١) نظام بركات – مبادئ علم السياسة ص٦٧.

للإسلام المرونة في الأمور المتغيرة مع ثبات الأصول العامة التي تحكمها، وقد وضع المفكرون المسلمون لكلمة السياسة معاني متعددة منها:

السياسة بمعنى الرئاسة أو القيادة والتوجيه من ساس الأمر أي قام بما يصلحه.

السياسة بمعنى التعاليم أو قواعد الحركة: أي المبادئ التي يجب أن تتحكم في مواجهة الموقف.

السياسة بمعنى أداة ذات أسلوب معين من أساليب الحكم يقوم على قواعد معينة تميزه عن الأساليب الأخرى[1].

أما المفكرون الغربيون فقد وضعوا تعريفات مختلفة الأبعاد لعلم السياسة انبثق عنها نظريات متباينة نختار منها ما جاء في قاموس العلوم الاجتماعية المعد تحت إشراف اليونسكو لأنه أقرب ما يكون لموضوع البحث (السياسة تعني بممارسات الأعمال الإنسانية التي تسوي أو تدعم وتتابع الصراع بين الصالح العام وبين مصالح الجماعات الخاصة والتي تشمل دائمًا استعمال القوة أو السعي إليها)[2] فهو يربط هنا السياسة بوجود الاختلافات الإنسانية فحيثما توجد الاختلافات التي تتعلق بالسياسة بشكل مباشر يمكن أن نذكر الاختلافات العرفية والطبقية واختلافات العقيدة واختلافات المصالح[3].

وعندما استقرأ المسلمون القرآن ظهرت آراء في السياسة وألفوا في ذلك كتبًا مستقلة مثل (السياسة الشرعية) (الأحكام السلطانية) كما كتب في السياسة

---

(١) حامد ربيع، التراث الإسلامي ص١١٢ - ١١٤.

(٢) نظام بركات: مبادئ علم السياسة ص ١٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٧.

ابن حزم وابن تيمية وابن خلدون والذي يرى ضرورة وجود حاكم، حيث جاء في مقدمته باب (في أن العمران البشري لا بد من سياسة ينتظم بها أمره).

كما يرى ابن خلدون أن الإنسان سياسي بطبعه أي يحتاج إلى من يضبط سلوكه الاجتماعي بقوة قاهرة حتى لا يبغي أحد على أحد.

وقد تناول القرآن الكريم هذه الأمور بأسلوب حواري ممتع في قصص الأمم السابقة لتكون لنا عبرة وعظة نأخذ بأحسنها ونترك السيئ منها، وقد تم تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الحوار السياسي في قصة يوسف عليه السلام.

المبحث الثاني: الحوار السياسي في قصة موسى عليه السلام.

المبحث الثالث: الحوار السياسي في قصة سليمان عليه السلام.

المبحث الرابع: الحوار السياسي في قصة ذي القرنين.

****

****



الحوار السياسي
في
قصة يوسف [عليه السلام]

المبحث الأول

الحوار السياسي في قصة يوسف عليه السلام

تتعدد أشكال الحكومات في العالم تبعًا لاختلاف الأنظمة التي تسير عليها الدول، فهناك حكومات ملكية وأخرى جمهورية وحكومات ديموقراطية وأخرى ديكتاتورية، فالنظام الملكي يقوم على أساس أن الملك يرأس الحكم ويكون ذلك بالوراثة أو بالاتفاق على أن يكون من أسرة معينة، وقد كان يحكم مصر زمن يوسف عليه السلام ملك عادل تبين له براءة يوسف وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة، وتبينت له كذلك كرامته وإباؤه فهو لا يتهافت على الخروج من السجن، وهو لا يتهافت على لقاء الملك ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلمًا، كل ذلك أوقع في نفس الملك احترامًا وحبًا له فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف/٥٤].

قال الملك: أئتوني بيوسف أجعله من خاصتي وخلصائي وموضع ثقتي، فلما أتوا به وكلمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحسن كلامه قال: إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة، ذو مكانة سامية ومنزلة عالية، مؤتمن على كل شيء.

فجاوبه يوسف: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/٥٥].

قال يوسف: ولّني على خزائن أرضك، واجعلني مشرفًا عليها فإني أمين على ما استودعتني، عليم بوجوه التصرف وحسن الانتفاع.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف/٥٦-٥٧].

وهكذا مكّن الله ليوسف في أرض مصر وجعل له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق، فاتخذ منها منزلاً وتصرف في المملكة كما يريد، فالله يخص بإنعامه وفضله من يشاء من عباده ولا يضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل يضاعفه له إذا كان شاكرًا لهذه النعم. فالحوار يدل على أن الأمر كله صار ليوسف الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة، وبرز يوسف في الحوار وحده على مسرح الحوادث وسلط عليه كل الضوء، فيجيء إخوة يوسف من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام، ومن خلال الحوار ندرك كيف صارت مصر محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ[2] ۝ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف/٥٨-٦٠].

جاء إخوة يوسف ممتارين وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد، فدخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته

---

(١) يقال: جهزت القوم تجهيزًا أي تكلفت لهم بجهازهم للسفر، وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج، وجوز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم، والجهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده (القرطبي ٩/٢٢١).

(٢) قال مجاهد: أي أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم مأخوذ من النزل وهو الطعام وقيل: أي أنه خير من نزلتم عليه من المأمونين مأخوذ من المنزل وهو الدار.

ولكنهم لم يعرفوه لهيبة الملك وبعد العهد وتغير الملامح والوصول إلى المركز السامي.

فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟

قالوا: جئنا للميرة.

قال: لعلكم عيون علينا؟

قالوا: معاذ الله!

قال: فمن أين أنتم؟

قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله.

قال: وله أولاد غيركم؟

قالوا: نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية – وكان أحبنا إليه وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه وجئنا نحن العشرة).

فأمر بإنزالهم وإكرامهم[1].

فلما هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم قال يوسف عليه السلام: ائتوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم، ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخس وأني خير من يكرم الضيوف، فإن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ولا تقربوا بلادي بعد هذه المرة.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف/٦١].

قال إخوة يوسف: سنجتهد ونحتال في انتزاعه من يده وإنا لفاعلون ذلك لا محالة.

---

(١) الجلالين/٣١٢، صفوة التفاسير ٥٨/٢، مختصر ابن كثير ٢٥٥/٢.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف/٦٢].

قال يوسف عليه السلام لغلمانه: اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها لكي يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانًا بلا ثمن، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها لعلهم يرجعون طمعًا في برنا(1).

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ(2) وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف/٦٣].

قال إخوة يوسف لأبيهم حين رجعوا: لقد أنذرنا عزيز مصر وأصدر أمره بمنع الكيل لنا في المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين، فأرسل معنا أخانا لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا وسنحفظه من أن يناله مكروه في ذهابه وإيابه.

فجاوبهم يعقوب:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف/٦٤].

---

(1) تفسير المراغي ١٢/١٣ – أو أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه (صفوة التفاسير ٢/٥٨).

(2) الأصل نكتال، حذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، وقرأ أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم "نكتل" بالنون وقرأ سائر الكوفيين "يكتل" بالياء، (القرطبي ٩/٢٤٤).

قال يعقوب لهم: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أتوكل على الله في حفظه، فحفظه خير من حفظكم وهو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين، فرحمته واسعة وفضله عظيم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ[1] أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف/٦٥].

فلما فتحوا الأوعية وجدوا فيها ما كان أعطوه من الثمن فقالوا لأبيهم: ماذا نطلب وراء ما وضعنا لك من إكرام الملك إلينا وإحسانه أعظم من هذا؟ فهذا ثمن الطعام قد رد إلينا من حيث لا ندري تفضلاً منه، فنحن ننتفع ببضاعتنا ونأتي بالميرة والطعام لأهلنا ونحفظ أخانا من المكاره ونزيد بصحبته لنا حمل بعير فهو سهل لا عسر فيه على ذلك الجواد المحسن ولا يشق عليه.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ[2] فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ

---

(١) ونمير أهلنا: أي ونطلب لأهلنا طعامًا فنشتريه لهم، يقال منه: مار فلان أهله يميرهم ميرًا، ومنه قول الشاعر:

بعثتك مائرًا فمكثت حولا ... متى يأتي غياثك من تغيث

والمائر: اسم فاعل من ماره، يقال مار عياله وأهله يميرهم ميرا، وامتار لهم: جلب لهم الطعام والميرة بالكسر: الطعام يمتاره الإنسان، وهم يمتارون لأنفسهم، ويميرون غيرهم والميار: جالب الميرة (الطبري ١١/١٣).

(٢) إلا أن يحاط بكم: مستثنى، وهو من أعم العام، لأن (لتأتنني به) وإن كان كلامًا مثبتًا فهو في معنى النفي، فكأنه قال: لا تمنعون من إتياني به في حال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا علة=

بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/٦٦-٦٨].

قال يعقوب عليه السلام لبنيه: لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدًا مؤكدًا وتحلفوا بالله لتردنه عليّ إلا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه، فيكون ذلك عندي عذرًا بعد أن لا يبقى لكم طريق أو حيلة، فلما حلفوا لأبيهم وأعطوه العهد المؤكد والموثق قال عليه السلام: الله شهيد رقيب عليه وأمره موكول إليه، فهو الذي يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيه، يا بَنيَّ لا تدخلوا مصر من باب واحد، بل ادخلوا متفرقين حتى لا يحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائدون وحتى لا يصيبكم جميعًا المكروه، فإني لا أدفع عنكم من قضاء الله شيئًا، ما الحكم في تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء، عليه وحده اعتمدت وبه وثقت دون حولي وقوتي وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان وليفوضوا أمورهم إلى الله لا إلى أمثالهم من المخلوقين – ودخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم، وما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئًا إذا أراد بهم مكروهًا، إلا خوفه عليهم من العين شفقة منه على بنيه، وإنه لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي وتأول الرؤيا الصادقة،

=الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرًا لكم عندي (فتح القدير ٣/٣٩).

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه من العلوم التي تنفع البشرية في الدارين.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ[1] قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ[2] إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف/٦٩-٧٠].

ولما دخل إخوة يوسف عليه في مجلسه، ضمَّ يوسف إليه أخاه بنيامين.

قال يوسف لأخيه: أنا أخوك يوسف الذي فقدتموني صغيرًا ولا تخبر أحدًا بذلك، ولا تحزن بما فعلوا بنا بما مضى من جفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير.

(١) أي ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: أخونا قد جئناك به فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيدًا فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله، وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتًا، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن والده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخًا مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا رحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: إني أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فإن الله أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك (الكشاف ٢/٣٣٣).

(٢) قال الزجاج: معناه يا أصحاب العير، وكل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير، وقيل هي قافلة الحمير، وقال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة (فتح القدير ٣/٤٢) والأرجح أنها قافلة إبل لأنها تتحمل مشقة السفر خاصة في الصحراء.

ولما قضى حاجتهم ووفى كيلهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة جعل صاعًا من ذهب مرصَّعٍ بالجواهر في متاع أخيه بنيامين، ونادى منادٍ: يا أصحاب الإبل أيها المسافرون، أنتم قوم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف/٧١].

قال إخوة يوسف: أي شيء تفقدون وماذا ضاع منكم؟

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ(1) ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف/٧٢].

قال المؤذن: نفقد مكيال الملك المرصع بالجواهر، ومن أتى به ورده إلينا نكافئه بحمل بعير من الطعام وأنا كفيل وضامن بذلك.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف/٧٣].

قال إخوة يوسف: نقسم بالله إنا ما جئنا بقصد أن نفسد بأرضكم ولقد علمتم ذلك منا أيها القوم ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا القبيح.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف/٧٥].

قال إخوة يوسف: جزاء السارق أخذه واسترقاقه ليصبح مملوكًا لمن سرق منه وكذلك نجازي من تعدى حدود الله وسرق أمتعة الناس وأموالهم.

---

(1) قرأ يحيى بن يعمر "صواغ" بالغين المعجمة، وقرأ أبو رجاء "صوع" بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة، وقرأ أبي "صياع" وقرأ أبو هريرة وأبو جعفر "صاع" وقرأ الجمهور "صواع" بالصاد والعين المهملتين. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر: ◆ نشرب الخمر بالصواع جهارًا.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ[(١)] كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ[(٢)] مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/٧٦].

قال لهم: لا بدَّ من تفتيش أوعيتكم واحدًا واحدًا، فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين، ثم استخرج الصواع من متاعه.

مثل هذا الكيد والتدبير الخفي صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده، وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر لأنه لا يبيح استرقاق السَّارق، إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه، وفوق كل عالم من هو أوسع علمًا منه إلى أن يصل الأمر إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف/٧٧].

قال إخوة يوسف عليه السلام: إن يسرق فقد سرق أخوه يوسف من قبل[(٣)].

---

(١) قيل قال لهم من وكل بهم لا بدَّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئا، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فاستخرجوه منه.

(٢) "كذلك كدنا ليوسف": أي مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف: يعني علَّمناه إيَّاه وأوحيناه إليه، والكيد مبدؤ السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية، قال القتيبي: كدنا: دبَّرنا. وقال ابن الأنباري كدنا: أردنا، وفي الآية دليل على معنى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعًا ثابتًا – (فتح القدير ٢/٤٣).

(٣) روى الطبري بسنده عن مجاهد أبي الحجاج، قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحق، وكانت أكبر ولد إسحق، وكانت إليها منطقة إسحق، وكانوا يتوارثونها=

ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين:

بعد انقضاء الأيام ومرور الأعوام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني والحزن الكامن، واللهف الظامي الشديد يلتقي يوسف بأبويه وإخوته.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا[1] وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ

=بالكبر، فكان من اختص بها ممن وليها كان له سلمًا لا ينازع فيه، يصنع فيه ما شاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف، كان قد حضنته عمته، فكان معها وإليها، فلم يحب أحد شيئًا من الأشياء حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، وقعت بنفس يعقوب عليه، أتاها فقال: يا أخية سلّمي إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، فقالت: والله ما أنا بتاركته، والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة، قال: فوالله ما أنا بتاركه. قالت: فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، وأسكن عنه، لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها ومن أصابها، فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت. قال: وأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال: فهو الذي تقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه (إن يسرق فقد سرق له أخ من قبل) (الطبري ١٣/٢٩).

(١) قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن، قال: لم يكن سجودًا، لكنه سنة كانت فيهم يومئون برؤوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقيل كان انحناء كالركوع، ولم يكن خرُّوا على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء. وقال الثوري والضحاك وغيرهما: كان سجودًا كالسجود المعهود عندنا وهو كان تحيتهم، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا وجعل الكلام بدلاً من الانحناء، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية الجنة (القرطبي ٩/٢٦٥)=

قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[1] ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا[2] يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف/٩٩-١٠١].

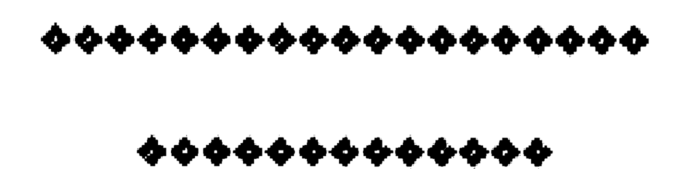
فلما دخل يعقوب عليه السلام مصر آمنًا من كل مكروه ضمَّ يوسف إليه أبويه واعتنقهما وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ثم أجلس أبويه على سرير الملك بجانبه فسجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخلوا عليه، ثم قال يوسف: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها من قبل في صغري، قد جعلها ربي حقيقة واقعة كما رأيتها في النوم، فقد أنعم الله عليّ وأحسن إليّ إذ أخرجني من السجن وسما بي إلى عرش الملك وجاء بكم من البادية إلى الحضر لتعيشوا في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق، بعدما أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي بالإغواء وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم، وهيج الحسد والشر، إن ربي عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده يدبر التدبير الحق بلطف ودقة وخفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها، إنه العليم بمصالح عباده، وختم يوسف هذا الحوار الرقيق بدعاء فقال: رب قد آتيتني ملك مصر وجعلتني متصرفًا

=والصحيح أنهم خروا على الأرض سجودًا ليوسف وكان ذلك جائزًا في شريعتهم لأن الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض.

(1) يقال: نزغه إذا نخسه، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها، وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرمًا منه وتأدبًا (فتح القدير ٥٦/٣).

(2) (إن ربي لطيف لما يشاء) أي رفيق بعباده وقال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، والمراد هنا الإكرام والرفق، قال قتادة، لطف بيوسف في إخراجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان (القرطبي ٢٦٧/٩).

فيها بالفعل وعلمتني تفسير الرؤيا ، أنت مبدع السموات والأرض، وأنت يا ربُّ متولي أموري وشئوني في الدارين اقبضني إليك مسلمًا ، واجعل لحاقي بالصالحين من آبائي إبراهيم وإسحق واحشرني في زمرتهم.



الدروس والعبر المستقاة من القصة

١- الحق هو المنتصر دائما ولو بعد حين.

٢- إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

٣- التوكل على الله هو الملاذ الوحيد لكل خائف .

٤- الآباء الصالحون يحرصون على مصلحة أبنائهم رغم أخطائهم وزلاتهم.

٥- الحسود لا يسود.

٦- أسعد ما تكون الأسرة بلمّ شملها وتعاون أفرادها واتحادهم وتسامحهم.

٧- رؤيا الأنبياء حق.

٨- الله سبحانه وتعالى هو المدبر لشئون خلقه لا يحسها الناس، وهو العليم بمصالح عباده.

٩- في الإسلام مرونة في الأمور المتغيرة مع ثبات في الأصول العامة التي تحكمها.

١٠- الإنسان سياسي بطبعه يحتاج إلى من يضبط سلوكه الاجتماعي بقوة قاهرة حتى لا يبغي أحد على أحد.

١١- المشرف على المال العام يجب أن يكون أمينًا عليه، عليمًا بوجوه التصرف وحسن الانتفاع.

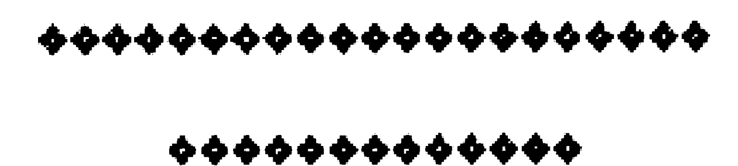
١٢- يختص الله بإنعامه وفضله ما يشاء من عباده، ولا يضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربّه.

١٣- حفظ الله خير من حفظ العبيد، وهو سبحانه أرحم بعبده من والديه.

١٤- على المحاور أن يعتمد على ربه ويتوكل عليه ويفوض أمره إليه.

١٥ - السجود على الأرض تحية لعظيم كان معمولاً به عند الأمم السابقة، وحُرِّم علينا، وأعطى الله هذه الأمة تحية السلام.

١٦ - الشيطان يفسد بين الإخوة بالإغواء ويقطع ما بينهم من وشيجة الرحم، ويهيج الحسد والشر.





الحوار السياسي
في
قصة موسى [عليه السلام] مع فرعون

المبحث الثاني
الحوار السياسي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون

الاستفسار عن رب العالمين:

ذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون وملئه، وعرض عليه ما آتاه الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزَّ وجلَّ، من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة والجدل، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق واتهموا موسى عليه السلام وأخاه هارون بالسحر المفتعل المصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه.

وأطراف الحوار موسى عليه السلام وهارون وفرعون وموضوع المحاورة: استفسار فرعون عن رب العالمين[1].

فلما بلغا فرعون الرسالة أجابهم:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه/٤٩].

قال فرعون: من هذا الرَّب الذي أرسلكما لتدعوني إليه.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه/٥٠].

قال موسى: ربنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه وأعطاه ما يليق به من الخواص والمزايا وهداه لمنافعها ومصالحها.

---

(1) وردت هذه المحاورة في سورة طه: ٤٩- ٦٠.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه/٥١].

قال فرعون: ما حال من هلك من الأمم الماضية.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (1) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ (2) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه/٥٢-٥٦].

قال موسى: علم أحوالها وأعمالها في كتاب عند ربي لا يفوته شيء لا كبير ولا صغير، ولا ينسى شيئًا ولا يخطئ ولا يغيب عن علمه شيء منها، فهو الذي جعل الأرض كالمهد تستقرون عليها، وجعل لكم منها طرقًا تسلكونها وأنزل من السحاب مطرًا عذبًا، وأخرج أصناف النبات، كلوا منها وارعوا أنعامكم، ففي ذلك علامات واضحة على وجود الله ووحدانيته لأصحاب العقول الراجحة والأفكار

---

(1) ورد في معناها عدة أقوال منها: ١- الزجاج: كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين ومعنى (لا يضل) لا يهلك من قوله (أئذا ضللنا في الأرض) ومعنى (ولا ينسى) اي لا ينسى شيئًا من الأشياء، فقد نزهه عن الهلاك والنسيان. ٢- (لا يضل) اي لا يخطئ. ٣- (لا يضل): اي لا يغيب قال ابن الأعرابي: أصل الضلال الغيبوبة. ٤- قيل إن المعنى: لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا ينسى ما علمه منها. ٥- قيل إن هاتين الجملتين صفة لكتاب، والمعنى أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له (فتح القدير ٣/٣٦٩).

(2) النهى: جمع نهية، سمي بها الفعل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سمي بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما تدعيه الطاغية وتقبله منهم الفئة الباغية وتخصيص أولي النهى مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (تنوير الأذهان ٢/٤٣٢).

الثاقبة والفطر السليمة، من الأرض خلقناكم وإليها تعودون بعد الموت، وسنخرجكم منها مرة أخرى للبعث والحساب.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى[1]﴾ [طه/٥٧-٥٨].

قال فرعون مجادلاً جدلاً قبيحًا: أجئتنا من مكانك لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر؟ فوالله لنعارضنك بسحر مثل سحرك، فاجعل بيننا وبينك ميقاتًا وموعدًا نجتمع فيه.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى[2]﴾ [طه/٥٩].

قال موسى: موعدكم يوم العيد وأن يجتمع الناس وقت الضحى.

- ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه/٦٠].

---

(١) اختلفت القراءات في قراءة سوى: ١- قراءة الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: (سِوىً) بكسر السين ٢- قراءة الكوفة (سُوىً) بضم السين، وهما لغتان مشهورتان في العرب ومعناهما متفق فبأي القراءتين قرئ فصحيح (الطبري ١٧٦/١٦).

ومعناها: أي اعد مكانًا عدلاً بيننا وبينك، وسطًا يستوي طرفاه من حيث المسافة علينا، وعليكم لا يكون فيه أحد الطرفين أرجح من الآخر، أو مكانًا مستويًا لا يحجب العين ارتفاعه ولا انخفاضه (تنوير الأذهان ٤٣٤/٢).

(٢) (وأن يحشر الناس ضحى) في محل رفع معطوف على يوم الزينة، أو في محل جر معطوف على الزينة، يعني ضحى ذلك اليوم والمعنى: يحشرون إلى العيد وقت الضحى. قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعد الضحى، وهو حين تشرق الشمس وخص الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع (فتح القدير ٣٧١/٣).

أي فانصرف فرعون فجمع السحرة ثم أتى الموعد ومعه السحرة وأدواتهم وأنصاره وأعوانه ثم أقبل في الموعد الذي عين ليطفئ نور الله.

وفي سورة الشعراء[1] يستمر الحوار بين فرعون وموسى عليه السلام، يعرض موسى رسالته ويدعو لربه بحوار لين وهين وفرعون يسخر ويستهزئ ويجادل وينفلت من مواجهة الحوار بجواب:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء/ ١٨ و١٩].

قال فرعون: ألم نُربِّك يا موسى في حجرنا ومنازلنا صبيًا صغيرًا؟ ومكثت بيننا سنين عديدة نرعاك ونحسن إليك، وقتلت منا نفسًا، فأنت من المنكرين لنعمتي، والجاحدين لحق تربيتي – فقد عدد عليه النعم ثم ذكر لموسى ذنوبه ليقطع حجته.

فجاوبه موسى:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء/ ٢٠-٢٢].

قال موسى: فعلت تلك الفعلة حين فعلت وأنا من المخطئين لأني لم أتعمد قتله، وإنما أردت تأديبه فمات، فهربت إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقه، فمنحني الله الحكمة والنبوة والعلم والحكم واختارني

(١) الشعراء: ١٨ -٣٨.

رسولاً إليكم، ثم يقر موسى بنعمة فرعون عليه فقال: بلى! وتربيتك نعمة عليّ من حيث استعبدت غيري وتركتني ولكن لا يدفع ذلك رسالتي[1].

فجاوبه فرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء/٢٣].

قال فرعون متعاليًا متكبرًا: أي شيء رب العالمين الذي ادعيت أنك رسوله؟

فجاوبه موسى:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء/٢٤].

قال موسى: هو الخالق للسموات والأرض، والمتصرف فيهما، إن كانت لكم قلوب مؤمنة وأبصار نافذة بالأشياء المرئية.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء/٢٥].

---

(١) روي هذا التفسير عن السدي والطبري والفراء وهو من باب الإقرار بالنعمة، وقيل هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار اي اتمن عليّ بأن ربيتني وليدًا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ فهذا ليس نعمة، لأن الواجب كان الا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص؟ ولو لم تقتل بني إسرائيل لرباني ابواي، فاي نعمة لك عليّ وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذلّ (القرطبي ١٣/٩٥).

اقول والقول الأول اظهر لأن الله تعالى امر موسى بأن يقول لفرعون قولاً لينًا ولا يخفى مما في الأقوال الأخرى من الجفاء، وموسى عندما يقر بالنعمة لفرعون فإنه يكون قد تقرب في حواره منه لاستمالة قلبه وشده لسماع الحوار إلى آخره وهذا هو ديدن المحاور الناجح.

فقال فرعون لمن حوله من أشراف قومه متهكمًا ومستهزئًا بموسى: الا تسمعون جوابه وتعجبوا منه؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته..

فأجاب موسى زيادة في تعريف الحق ولم ينشغل في سفاهة فرعون:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء/٢٦].

قال موسى: هو خالقكم وخالق آبائكم ومن كان قبلكم.

فيغضب فرعون وينسب الجنون إلى موسى:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء/٢٧].

قال فرعون: إن هذا الرسول مجنون لا عقل له. فإن ما قاله لا يصدر عن العقلاء.

فاستمر موسى ولم يحفل بسخرية فرعون:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء/٢٨].

قال موسى: فهو تعالى الذي له الشروق والغروب الذي تبصرونه كل يوم، إن كان لكم عقول تستدل بالأثر على المؤثر.

فتمرد فرعون واستعلى وهدد بالبطش والعنف، وهكذا عادة الجبابرة، فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[1]

[الشعراء/٢٩].

---

١) لم يقل " لأسجننك" وإنما قال من المسجونين؛ لأن سجنه كان أشد من القتل، وكان فرعون يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحدًا حتى يموت (أيسر التفاسير ٢/٢٧٨)

قال فرعون: لئن اتخذت ربًا غيري لأجعلنك من الذين عرفت أحوالهم في سجوني.

عند ذلك لاطف موسى عليه السلام فرعون بالحوار طمعًا في إجابته وإرخاء العنان في المناظرة معه..

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء/٣٠].

قال موسى: أتفعل بي ذلك، ولو جئتك بأمر ظاهر لصدق دعواي؟

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء/٣١].

قال فرعون: فأت ببينة موضحة لصدق دعواك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء/٣٢-٣٣].

فرمى موسى عليه السلام عصاه فإذا هي من أعظم الحيات في غاية الوضوح والجلاء، وأخرج يده من جيبه فإذا هي ذات نور وبياض من غير برص تتلألأ كالشمس الساطعة، ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

وهنا يدور حوار بين فرعون وملئه:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[1]﴾ [الشعراء/٣٤-٣٥].

---

(١) تامرون: مأخوذة من المؤامرة وهي المشاورة، أو من الأمر الذي هو ضد النهي، فمن الملفت للنظر أنه لما استولى عليه فرط الدهشة والحيرة جعل العبيد آمرين وربهم مأمور (الكشاف ٢/ ١١١).

قال فرعون لأشراف قومه: إن هذا لساحر فائق في علم السحر يريد أن يستولي على بلادكم بسحره ويتغلب عليكم، فبأي شيء تأمرون وبماذا تشيرون عليّ أن أصنع به.

- ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ[1] يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء/٣٦-٣٨].

حوار موسى عليه السلام للسحرة:

قال الملأ من قوم فرعون: أخّر أمر موسى وأخيه هارون حتى تنظر، ولا تعجل بقتلهما، قبل أن يظهر كذبهما وأرسل في الأمصار والبلدان وأطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان، يجيئوك بكل ساحر ماهر عليم بضروب السحر ليعارضوا موسى بمثل سحره، ويتضح للعامة كذبه، فتقتله حينئذ، فاجتمع السحرة لما وقت به وعين من ساعات يوم معين وموقت الضحى من يوم الزينة، يوم عيد لهم ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار، ووافق فرعون ليظهر كذب موسى بمحضر الجمع العظيم. وهنا يدور حوار بين موسى عليه السلام وبين السحرة:

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[2] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه/٦١].

---

(١) الميقات: ما وقت به، أي حدد الزمان والمكان، ومنه مواقيت الإحرام. (الكشاف ٢/١٢).

(٢) فيسحتكم بعذاب: أي يستأصلكم بهلاك فيبيدكم، وللعرب فيه لغتان: سحت وأسحت، وسحت أكثر من أسحت، يقال منه: سحت الدهر، وأسحت مال فلان: إذا أهلكه فهو يسحته سحتا، وأسحته يسحته إسحاتًا، ومن الإسحات قول الفرزدق:

ومضى زمان ابن مروان لم يدع — من المال إلا مسحتًا أو مجلّف (الطبري ١٦/١٧٨).

قال موسى عليه السلام للسحرة: ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب ولا تتقولوا عليه، فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل من عنده قد خاب وخسر وهلك من كذب على الله.

فلما سمع السحرة هذه النصيحة والإنذار هالهم ذلك ووقعت في نفوسهم مهابة ولذلك تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول:

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝ فَأَجۡمِعُواْ[1] كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه/٦٢- ٦٥].

قال السحرة بعد التشاور والتفاوض، ما هذان إلا ساحران خبيران بصناعة السحر يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها، وإفساد دينكم الذي هو أفضل المذاهب والأديان، فأحكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا ثم ائتوا

والسحت لغة أهل الحجاز والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم (الكشاف ٢/٥٤٣).

(١) فاجمعوا: اختلف القراء في قراءتها كما يلي: ١- عامة قراء أهل المدينة والكوفة (فأجمعوا) بهمز الألف، ويكون المعنى فأحكموا كيدكم، واعزموا عليه، من قولهم أجمع فلان الخروج، وأجمع على الخروج ومنه قول الشاعر:

يا ليت شعري والمنى لا تنفع   هل أغدون يومًا وأمري مجمع

يعني بقوله "مجمع": اي قد أحكم وعزم عليه، ومنه قول النبي ﷺ: "من لم يجمع على الصوم من الليل فلا صوم له". ٢- بعض قراء أهل البصرة: (فاجمعوا) بوصل الألف، وترك همزها، من جمعت الشيء ويكون المعنى: فلا تدعوا من كيدكم شيئا إلا جئتم به. والصواب القراءة الأولى لإجماع الحجة من القراء عليه (الطبري ١٦/١٨٤).

مصطفين مجتمعين ليكون أرهب في أعين الناظرين، وقد فاز بالمطلوب من علا وغلب وبكل ثقة بالنفس قالوا لموسى: إما أن تبدأ أنت بالإلقاء أو نبدأ نحن فنلقي ما معنا.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ[1] أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا[2] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا

(١) السحر في اللغة: كل ما لطف ودق، وهو رقى وعزائم وعقد، تؤثر في الأبدان والقلوب، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، وله حقيقة (تنوير الأذهان ٤٣٦/٢).

(٢) في تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل فسجد السحرة إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه المطلوب إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، فسبحان الله ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين (الكشاف ٥٤٥/٢) وفي هذا تنبيه للمحاور في اختيار الألفاظ المناسبة في المواقف والظروف حتى يوقظ المحاورين وينقلهم من حالهم السيئ إلى أحسن حال.

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ[1] ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه/٦٦-٧٦].

ولقد تقدم ذكر الحوار الذي دار بين موسى والسحرة وبين السحرة وفرعون بما يغني عن إعادته.

تمادي فرعون وقومه في الكفر وفي إيذاء بني إسرائيل ووصية موسى لقومه بالصبر والحوار في ذلك:

كان من موسى عليه السلام بعد أن نصره الله تعالى على السحرة فآمنوا مستهينين بعذاب الدنيا، أن دأب على دعاء فرعون إلى الإيمان وإطلاقه بني إسرائيل، إلا أن فرعون تمادى في كفره ودفعه لموسى وهدد بقتل بني إسرائيل واستحياء نسائهم، معتزًا بما لديه من غلبة وسلطان، وشكى بنو إسرائيل لموسى فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء، وأن يستعينوا بالله على احتماله ووعدهم حسن العاقبة فدعى موسى على فرعون واستعاذ بالله من شره فأوقع الله به العذاب وأرسل عليه الجدب ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات

---

(١) المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي، ومعنى لا يموت فيها ولا يحيى أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه. قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي، ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته، وأنشد ابن الأنباري:

ألا من لنفس لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

(فتح القدير ٣/٢٧٦).

بينات. ويستمر موسى عليه السلام في حواره يدعو إلى ربه وينصح قومه، فيخشى الملأ على مراكزهم وأن تسلب النعم من بين أيديهم وهم ينظرون بسبب ما جاء به موسى فيتمالؤون مع فرعون ويضمرون لموسى وقومه الأذى والبغض.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ[1]﴾ [الأعراف/١٢٧].

قال الأشراف من قوم فرعون لفرعون تحريضًا: أتترك موسى وقومه أحرارًا ليفسدوا في الأرض ويخرجوا عن دينك ويتركوا عبادة آلهتك فلا يعبدوك ولا يعبدوها فتظهر أمام شعبك عاجزًا.

---

(١) ورد في يذرك عدة قراءات منها:

١ - نعيم بن ميسرة: (ويذرُك) بالرفع على تقدير مبتدأ: أي وهو يذرك أو على العطف على (أتذر موسى): أي أتذره ويذرك.

٢ - الأشهب العقيلي (ويذرْك) بالجزم.

٣ - أنس بن مالك: (ونذرك) بالنون مع الرفع ومعناه: انهم أخبروا بأنهم سيذرونه وآلهته.

٤ - الجمهور: (ويذرك) بالنصب بأن مقدرة على انه جواب الاستفهام والواو نائبة عن الفاء أوعطفًا على (يفسدوا).

كما ورد عدة معانٍ لقوله (وآلهتك) منها:

١ - طاعتك.

٢ - عبادتك.

٣ - قيل إنه كان يعبد بقرة.

٤ - قيل كان يعبد النجوم.

٥ - قيل كان له أصنام يعبدها قومه تقربًا إليه فنسبت إليه ولهذا قال – أنا ربكم الأعلى.

٦ - قيل كان يعبد الشمس.

(فتح القدير ٢/٢٣٥).

فجاوبهم فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف/١٢٧].

قال فرعون مجيبًا لهم: سنقتل أبناءهم الذكور ونستبقي نساءهم أحياء للاستخدام كما كنا نفعل قبل ولادته وإنا عالون فوقهم بالقهر والسلطان والغلبة، وهذا حال كل من استكبر إذا عجز عن الحجة مال إلى التهديد والوعيد.

فلما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد خافوا من فرعون **فطمأنهم موسى:**

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف/١٢٨].

قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا على ما ينالكم من الأذى فالأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده، والنتيجة المحمودة لمن يتقي الله ويراعي سننه وأحكامه.

فجاوبوه فزعين من فرعون:

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف/١٢٩].

قال قوم موسى: أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها.

فرد عليهم موسى:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/١٢٩].

قال موسى: إن رجائي من فضل الله أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم خلفاء في أرضهم بعد هلاكهم، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد.

ثم تحدثت الآيات عما حل بقوم فرعون من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله والتي كان منها الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فلجأوا إلى موسى وطلبوا منه أن يرفع الله عنهم العذاب فإذا هو فعل آمنوا ولكنهم في كل مرة ينكثون...

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف/١٣٤-١٣٦].

قال قوم فرعون: يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من الرسالة أن يكشف عنا هذا الرجز، ونحن نقسم لك لئن رفعته وكشفته لنصدقن بما جئت به ولنرسلن معك بني إسرائيل، فلما كشف الله عنهم العذاب مرة بعد أخرى إلى حد من الزمان هم واصلون إليه وهو الغرق، إذا هم ينقضون عهودهم ويصرون على الكفر، فانتقم الله منهم بالإغراق في البحر، فأورث الله بني إسرائيل الأرض.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[1] [الأعراف/١٣٧].

****

****

---

(١) اختلفت القراءة في قراءة يعرشون على النحو التالي:

١- قرأ أهل الحجاز والعراق (يَعْرِشُون) بكسر الراء.

٢- عاصم (يَعرُشون) بضم الراء والقراءة الأولى والثانية مشهورتان في لغة العرب يقال: عرش يعرش ويعرش فبأي قراءة قرئ فهو صحيح والأفضل أن يقرأ بكسر الراء لشهرتها وكثرة القراءة بها وأنها أصح اللغتين (الطبري ٩/٤٤).

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - العناد والجدل والتلويح باستخدام القوة من صفات الكافر عندما يعجز عن الرد على محاوره.

٢ - الحوار يتطلب الإصغاء إلى الخصم دون مقاطعته.

٣ - على المحاور أن يعترف بالأمور التي يجهلها ويردها إلى الله.

٤ - إقناع الخصم هو غاية ما يسعى إليه المحاور، ويتطلب الإتيان بالأدلة والحجج والبراهين.

٥ - المحاور الناجح هو الذي يتحلى بالصبر واللين وعدم الغضب مهما استفز.

٦ - على المحاور الذي يدافع عن قضية عادلة يؤمن بها وهي في حدود الشرع والدين أن يكون واثقًا من نصر الله له.

٧ - المحاور الناجح هو من يملك القدرة على جذب المشاهدين والمستمعين إليه.

٨ - بطانة الحاكم إما نعمة إذا عرفت الحق واتبعته، وإما نقمة إذا عرفت الحق وانصرفت عنه.

٩ - ... إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

١٠ - اختيار المحاور للألفاظ المناسبة في المواقف والظروف يوقظ المحاورين وينقلهم من حالهم السيئ إلى أحسن حال.

١١ - إن المجرم المتلبس بالكفر والمعاصي لا يموت ميتة مريحة، ولا يحيا حياة ممتعة.

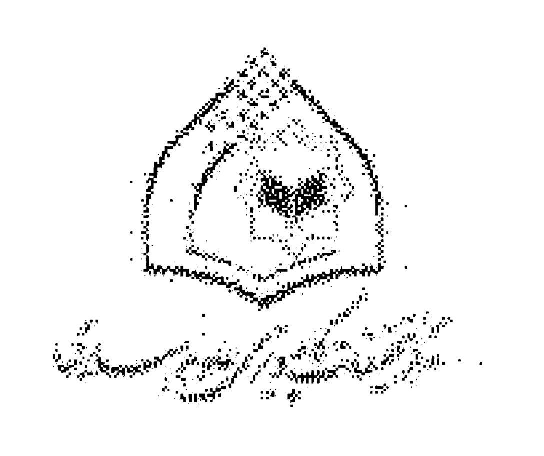
١٢ - كل من استكبر إذا عجز عن الحجة مال إلى التهديد والوعيد.

١٣ - الأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده، والنتيجة المحمودة لمن يتقي الله ويرعى سننه وأحكامه.



المبحث الثالث

الحوار السياسي
في
قصة سليمان عليه السلام



المبحث الثالث

الحوار السياسي في قصة سليمان عليه السلام

صار إلى سليمان العلم والنبوة والملك بعد موت أبيه داود دون سائر أولاده... فقال متحدثًا ومشهرًا لنعمة الله تعالى: يا أيها الناس، لقد كرَّمَنَا الله فعلمنا منطق الطير وأصوات الحيوانات، وأعطانا من كل شيء من خيرات الدنيا، فهذا هو الفضل والإحسان الواضح الذي لا يخفى على أحد، ثم جمعت له عساكره وجيوشه وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير في أبهة وعظمة كبيرة إظهارًا لكمال قوة الملك، يحبس أوائلهم على أواخرهم ليتلاحقوا ولا ينتشروا فلا تتقدم في المسير كما تصنع الملوك.

قال تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ[1] وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ[2] وَأُوتِينَا مِن كُلِّ

---

(١) أي صار إلى سليمان العلم والنبوة والملك بعد موت داود، دون سائر أولاده، فسمي ميراثًا تجوزًا، لأن حقيقة الميراث في المال، والأنبياء إنما يرثون الكمالات النفسانية، ولا قدر للمال عندهم (تنوير الأذهان ١٢١/٣).

(٢) (علمنا) النون نون الواحد المطاع على عادة الملوك رعاية لقاعدة السياسة، (منطق) النطق كل لفظ يعبر به عما في الضمير وقد يطلق على كل ما يصوّت، يقال نطقت الحمامة إذا صوتت.

(الطير) جمع طائر وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء، وكان سليمان يعرف نطق الحيوان أيضًا، وخص منطق الطير لشرف الطير على سائر الحيوان، يحكى أن سليمان عليه السلام مر على بلبل في شجرة يشدو ويترقص، - أي يحرك رأسه ويميل ذنبه - فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ فقالوا: الله أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء – أي التراب والدروس -.

وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا.

وصاح طاووس فقال يقول: كما تدين تدان

وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله يا مذنبون.

وصاح خطاف فقال: يقول قدموا خيرًا تجدوه (الكشاف ١٤٠/٢)=

شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ[1] وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل/١٦ و١٧].

الحوار بين سليمان عليه السلام والنملة:

قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ[2] قَالَتۡ نَمۡلَةٞ[3] يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل/١٨]

---

(١) قدم ذكر الجن على الإنس والطير للإعلام بكمال قوة ملكه، لأن الجن طائفة طاغية بعيدة عن الحشر والتسخير (تنوير الأذهان ٣/١٢٢).

(٢) أي أشرفوا عليه من فوق، والمراد بالإتيان عليه قطعه، من قولهم أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره (تنوير الأذهان ٣/١٢٢).

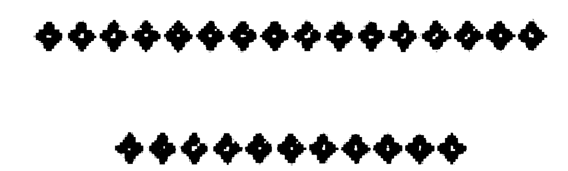
(٣) نملة مؤنث حقيقي بدليل لحوق علامة التأنيث، لأن النملة تطلق على الذكر والأنثى، فإذا أريد تمييزها احتيج إلى مميز خارجي، نحو نملة ذكر، ونملة أنثى. ذكر أن الإمام قتادة دخل الكوفة، فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة حاضرًا وهو غلام حدث، فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ فقال من كتاب الله وهو قوله: (قالت نملة) ولو كان ذكرًا لقال: قال نملة وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة، في وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى. فإن قيل كيف عرفت النملة سليمان؟ قلنا لأنها مأمورة بطاعته فلا بد أن تعرف من أمرت بطاعته، ولها من العلم فوق هذا، فإنها تعرف كثيرًا من منافعها، من ذلك أنها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت، وإذا وصلت النداوة إلى الحبة تخرجها إلى الشمس من جحرها حتى تجف (تنوير الأذهان ٣/١٢٢).

وقد رد أبو حيان على من قال بأن النملة أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها، فقال: لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصح أن يقال في المذكر قالت، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهي مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى (فتح القدير ٤/١٣٠).

حتى إذا أشرفوا ووصلوا إلى واد كثير النمل قالت إحدى النملات لرفيقاتها منبهة لهم: يا أيها النمل ادخلوا بيوتكم، لا يكسرنكم سليمان وجنوده بأقدامهم، وهم لا يشعرون بكم إذ لو شعروا لم يفعلوا لأنهم لا يريدون حطمكم عن عمد. فسمع سليمان كلامها وفهم مرادها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا[1] وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل/١٩].

فتبسم عليه السلام متعجبًا من حذرها وتحذيرها، واهتدائها إلى مصالحها ومصالح بني نوعها، مسرورًا بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده من التقوى والشفقة والتحفظ من مضرة أضعف الحيوان، فتوجه إلى ربه فقال: يا ربِّ ألهمني ووفقني لشكر نعمتك وفضلك التي أنعمت بها علي وعلى أبوي شكرًا لا ينفلت عني ولا أنفك عن شكرك، وأدخلني الجنة دار الرحمة برحمتك – فلا يدخلها أحد إلا بالرحمة والفضل لا بالعمل – مع جملة الأنبياء ومن تبعهم بإحسان.



---

(١) تبسَّمَ، بالفتح، يبسم بسمًا فهو باسم وابتسم وتبسم، والمبسم الثغر فالتبسم ابتداء الضحك. والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء، إلا أن الضحك يقتضي مزيدًا على التبسم، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه. والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم (القرطبي ١٣/١٧٥).

(٢) ذكر العلماء عدة أقوال في تفسير أوزعني نذكر منها: ١ - الزمخشري: اجعلني أزع شكر نعمك عندي وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرًا لك. ٢ - الواحدي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي. ٣ - القرطبي: كفني عما يسخطك. ٤ - الزجاج: امنعني أن أكفر نعمتك (فتح القدير ٤/١٣١).

حوار سليمان عليه السلام مع الهدهد:

قال تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ[1] فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل/٢٠-٢١].

بحث سليمان وفتش وتعرف أحوال الطير، فلم ير الهدهد فيما بينها فقال: لم لا أرى الهدهد، هل لساتر يستره؟ أو لشيء آخر؟ بل هو غائب، ذهب دون إذن مني، لأعذبنه تعذيبًا شديدًا وعقابًا اليمًا بنتف ريشه أو حبسه مع ضده في قفص أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ[2] فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا[3] يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل/٢٢-٢٦].

---

(١) التفقد: الطلب عن غيبه، وطلب المفقود، وإنما قيل له التفقد لأن طالب الشيء يدرك بعضه ويفقد بعضه، (تنوير الأذهان ٣/١٢٢) والله سبحانه أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بعد الماء (الطبري ١٩/١١٤).

وقالت فرقة: تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد الطير، ليتبين من أين دخلت الشمس (القرطبي ١٣/١٧٧).

(٢) ورد في قراءتها: ١ - الجمهور من القراء (فمكُث) ضم الكاف. ٢ - عاصم: (فمكَث) فتح الكاف. وبالفتح أحسن لقوله تعالى: (ماكثين)، ومعناه في القراءتين أقام (القرطبي ١٣/١٨٠).

(٣) اختلفت القراءات: في قراءة قوله (الا) نذكر منها: ١ - بعض المكيين وبعض المدنيين والكوفيين (الا) بالتخفيف، بمعنى الا يا هؤلاء اسجدوا، فأضمروا هؤلاء اكتفاء بدلالة (ياء)= عليها.= ٢ -

أي فأقام الهدهد زمانًا غير مديد ثم جاء إلى سليمان فقال له: اطلعت وعلمت على ما تطلع عليه وعرفت ما لم تعرفه، وأتيتك من مدينة سبأ بخبر خطير محقق، وأمر صادق خطير، فمن عجائب ما رأيت أن امرأة تملك الولاية والتصرف عليهم وهم يدينون لها بالطاعة، وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا، من سعة في المال وكثرة في الرجال ووفرة في السلاح والعتاد، ولها سرير كريم حسن الصنعة، وجدتهم جميعًا يعبدون الشمس متجاوزين عبادة الله تعالى، قد حسن لهم إبليس أعمالهم القبيحة وجعلهم لا يسجدون لله خالقهم العظيم، الذي يعلم المستور وكل مخبوء في العالم العلوي والسفلي، ويعلم ما في القلوب وما فعلته الجوارح والألسن، وما ظهر وما بطن فهو تعالى المنفرد بالجلال والعظمة ربّ العرش العظيم وهو وحده المستحق للعبادة والسجود.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل/٢٧ و٢٨].

قال سليمان عليه السلام: سننظر فيما أخبرتنا لنعرف بالتجربة ونتثبت هل أنت صدقت في قولك أم كنت كاذبًا إذهب بهذا الكتاب إلى ملكة سبأ فاطرحه عليها وعلى قومها ثم أعرض عنهم وتبعّد إلى مكان تنتظر ماذا يردون من جواب.

---

*عامة قراء المدينة والكوفة والبصرة: (ألاّ) بالتشديد بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله والصواب أنهما قراءتان مستفيضتان فبأي قراءة قرئ فهو صحيح (الطبري ١٤٩/١٩) وفي قوله تعالى: (الا يسجدوا لله) اختلف العلماء في القائل: قال الجرجاني: هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله، ومعناه الا ليسجدوا، وقال ابن عطية وابن زيد وابن إسحق هو من كلام الهدهد — وقراءة التشديد في (الا) تعطي الكلام للهدهد وقراءة التخفيف تمنعه والقراءتين توجب السجود لله تعالى (القرطبي ١٨٧/١٣).

ثم تدور محاورة بين ملكة سبأ والملأ من قومها في هذه النازلة فتبدأ حوارها معهم بعرض موضوع الحوار ويراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وسنرى محاورة حسنة من الجميع بإذن الله.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ[1] ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل/٢٩-٣٢].

قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: إنه أتاني كتاب معظم جليل حسن ما فيه مرض في لفظه ومعانيه، ثم قرأته على قومها فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لا تتكبروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك وجيئوني حال كونكم مؤمنين موحدين طائعين.

يا قوم: أشيروا عليَّ في الأمر واذكروا ما تستصوبون فيه، ما كنت لأقضي أمرًا بدون حضوركم وبدون مشورتكم.

فجاوبوها:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل/٣٣].

---

(١) وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم. قال | : (كرم الكتاب ختمه) وكان ﷺ يكتب إلى العجم فقيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتابًا عليه خاتم فاصطنع خاتمًا. وعند ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتابًا ولم يختمه فقد استخف به، وقيل قالت كتاب كريم لأنه مصدر بـ بسم الله الرحمن الرحيم (الكشاف ٣/١٤٦).

قال الأشراف من قومها: نحن أصحاب كثرة في الرجال والعتاد وأصحاب قوة في الأجساد وأهل نجدة وشجاعة في الحرب، وأمرنا مفوض إليك فمرينا بما شئت نمتثل أمرك.

فجاوبتهم:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ[1]﴾

[النمل/٣٤-٣٥].

قالت ملكة سبأ لقومها: إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على قرية من القرى أو مدينة من المدن قهرًا وعنوةً قاموا بتخريبها وإتلاف ما فيها – وإهانة أشرافها بالقتل والأسر والتشديد وهذا من عادتهم المستمرة وطريقتهم في كل بلد يدخلونها، وإني سأبعث إليهم بهدية عظيمة تليق، مع الملاطفة والرفق، فانظر هل

---

(١) كان النبي ﷺ يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها لتعرف من كون سليمان ملكًا أو نبيًا، لأنه قال لها في كتابه: (ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين) وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الهدية المطلقة والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال وهذا ما لم يكن من مشرك، والهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة، روى الإمام مالك عن عطاء بن عبدالله الخراساني قال: قال رسول الله ﷺ: (تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء) ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدى إليه رقة في اللقاء والجلوس ولقد أحسن من قال:

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تولد في قلوبهم الوصالا

وتزرع في الضمير هوى ووُدًا ... وتكسبهم إذا حضروا جمالا

(القرطبي ١٣/١٩٨ و١٩٩).

يقبلها أم يردها وما هو جوابه حتى أعمل بما يقتضيه الحال فالهدية تقع موقعًا عظيمًا في قلوب الناس.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ[1] بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل/٣٦ و٣٧].

جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة فقال منكرًا عليهم: أتصانعونني بالمال الحقير والهدايا لأترككم على كفركم وملككم، فما أعطاني الله من النبوة والملك خير من المال ومتاع الدنيا، فلا حاجة لي بهديتكم ولا وقع لها عندي، بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم لأنكم تحبون زيادة المال والمفاخرة والمكاثرة في الدنيا، ارجع أيها الرسول إلى قومك ومعك هديتهم، ليعلموا أن أهل الدين لا ينخدعون بحطام الدنيا، فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها، ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين بعد أن كانوا من أهل العز والتمكين ليصبحوا أسارى مهانين، إن لم يأتوني مسلمين مؤمنين.

ورجعت الرسل إلى ملكتهم وأخبروها الخبر.

---

(١) اختلفت القراء في قراءة (أتمدونن): ١- بعض قراء أهل المدينة: (أتمدونني) بنونين، وإثبات الياء. ٢- بعض الكوفيين (أتمدونن) بنونين وحذفوا الياء من آخر الكلمة وكسروا الأخيرة. ٣- بعض قراء البصرة أثبتوا الياء في الوصل وحذفوها في الوقف. ٤- قرأ بعض قراء الكوفة بتشديد النون وإثبات الياء. وكل هذه القراءات متقاربات وجميعها صواب لأنها معروفة في لغات العرب، مشهورة في منطقها (الطبري ١٩/١٥٧).

فقالت: قد علمت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة. ثم بعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وبما تدعوني، ثم ارتحلت مع حاشيتها إلى سليمان.

ثم يدور حوار بين سليمان ورعيته ويبدأ بالجواب عفريت من الجن:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

[النمل/٣٨].

قال سليمان لأشراف رعيته: أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن تصل مسلمة مع قومها إليّ؟

فجاوبه عفريت من الجن:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ[1] مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل/٣٩].

---

(١) ورد في قراءة عفريت عدة قراءات نذكر منها: ١- الجمهور: عفريت. ٢- أبو بكر الصديق وأبو رجاء وعيسى الثقفي (عفرية). وفي الحديث "إن الله يبغض العفرية النفرية" والنفرية الداهية، قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفرية وعفريت وعفارية، وقيل عفريت أي رئيس. ٣- ابن عطية: (عفرٌ) بكسر العين. والعفريت من الشياطين: القوي المارد وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "إن عفريتًا من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة وإن الله أمكنني منه فذعته" والفتك: الأخذ في غفلة وخديعة، فدعته أي دفعته دفعًا شديدًا، وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه قال: أسري برسول الله ﷺ، فرأى عفريتًا من الجن يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رسول الله ﷺ رآه، فقال جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهنّ طفئت شعلته وخر لفيه، فقال رسول الله ﷺ: "بلى" فقال: أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ في الأرض، وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن".
(القرطبي ١٣/٢٠٤).

قال مارد من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإني على حمله لقادر وعلى ما فيه من الجواهر والدرر لأمين.

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[1] أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل/٤٠].

قال رجل من رعيته: أنا آتيك به بلمح البصر.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل/٤٠].

---

(١) هو (آصف بن برخيا) وكان رجلاً صديقًا، يقرأ الكتب الإلهية، ويعلم الاسم العظيم الذي إذا دعي الله به أجاب، وقد خلقه الله تعالى لنصرة سليمان ونفاذ أمره، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة على موسى وإبراهيم (تنوير الأذهان ١٢٧/٣)=

قال النبي ﷺ: "إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حي يا قيوم: قيل: هو بلسانهم، أهيا شراهيا، وقال الزهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم، يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت آتيني بعرشها، فمثل بين يديه، وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كل شيء يا ذا الجلال والإكرام، وقد ورد عدة أقوال في اسم الذي عنده علم من الكتاب نذكر منها: ١- آصف بن برخيا وهو أصحها. ٢- سليمان- ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل. ٣- قيل: هو ملك بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. ٤- قال محمد بن الحسن المقرئ: هو ضبة بن أد – وهذا لا يصح لأنه كان في عهد بختنصر بعد عهد سليمان بدهر طويل. ٥- قال ابن لهيعة: هو الخضر عليه السلام. ٦- قال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض، وهل يعبد الله أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسم من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش. ٧- القشيري: هو يمليخا رجل من بني إسرائيل كان يعلم اسم الله الأعظم. ٨- الغزنوي: هو أسطوم وكان عابدًا من بني إسرائيل كان عنده علم من الكتاب. ٩- النخعي: هو جبريل.

والذي عليه الجمهور أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، روي أنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان: يا نبي الله امدد بصرك فمد بصره نحو اليمين فإذا بالعرش فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده (القرطبي ٢٠٥/١٣ و٢٠٦).

فلما حضر عرش بلقيس ورآه سليمان قال: هذا من فضل ربي عليّ وإحسانه إليّ، ليختبرني أأشكر إنعامه أم أجحد فضله وإحسانه، فمن يشكر ففائدة الشكر لنفسه ويستزيد من فضله، ومن جحد فضل الله فإن الله مستغنٍ عنه وعن شكره.

ثم أمر بأن تغير بعض معالم عرشها ليمتحنها:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل/٤١].

قال سليمان: غيروا بعض أوصاف عرشها لنعلم إذا رأته هل تهدي إليه أم لا.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا[1] عَرْشُكِ﴾ [النمل/٤٢].

قيل لها عندما وصلت إلى سليمان: أمثل هذا العرش عرشك؟

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ[2]﴾ [النمل/٤٢].

قالت بلقيس: إنه يشبهه ويقاربه.

(١) أهكذا ثلاث كلمات، حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك، لئلا يكون تلقينًا (الكشاف ٣/١٥٠) قال الفراء وغيره: إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له إن في عقلها شيئًا فأراد أن يمتحنها، وقيل خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدًا، فقالوا لسليمان إنها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الماعز. فقال لها أهكذا عرشك لم يقل هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينًا لها فلا يتم الاختبار لعقلها (فتح القدير ٤/١٤١).

(٢) قال مجاهد: جعلت تعرف وتنكر وتعجب من حضوره عند سليمان، وقال مقاتل: عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقال عكرمة: كانت حكيمة قالت إن قلت هو خشيت إني أكذب وإن قلت لا خشيت أن أكذب، فقالت كأنه هو (فتح القدير ٤/١٤١).

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل/٤٢-٤٣].

قال سليمان: لقد أوتينا العلم بالله من قبل هذه الملكة وعلمنا بقدرته وأسلمنا لله فنحن أسبق منها علمًا وإسلامًا، وما منعها عن الإيمان بالله وعبادتها لغيره إلا نشؤها بين قوم مشركين.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ(١) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ(٢)﴾ [النمل/٤٤].

قيل لها: ادخلي القصر العظيم.

فلما رأت ذلك القصر الفخم الشامخ ظنته ماء كثيرًا سيغمر رجليها فكشفت عن ساقيها لتخوض فيه فقال لها سليمان إنه قصر مصنوع من الزجاج الصافي.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل/٤٤].

قالت بلقيس: يا رب إني ظلمت نفسي بالشرك، فتب عليَّ وإني اتبعت سليمان في دينه فأسلمت لك وآمنت بك يا رب العالمين.

---

(١) قال مجاهد: كان الصرح صحنًا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكًا أعظم من ملكها. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء (حسبته لجة) أي ماء=

=وقال أبو عبيدة: الصرح القصر كما قال أبو ذؤيب:

على طرق كنحور الظبا   تحسب أعلامهن الصروحا

(٢) الممرد: المحكوك المملس، ومنه الأمرد، وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها، ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت، والممرد أيضًا المطول، ومنه قيل للحصن مارد (القرطبي ١٣/٢٠٩).

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - إن الله يؤتي الملك لمن يشاء، وهو أعلم أين يضع رسالته.

٢ - الخوارق والمعجزات والقدرات اختص الله بها من شاء من عباده.

٣ - الحاكم الصالح هو من يسهر على مصالح رعيته، ويتفقد أحوالهم مع الاتصاف باليقظة والحزم.

٤ - الشورى من ضرورات السلطة.

٥ - وجوب الثبات على الحق رغم المغريات.

٦ - الحق بحاجة إلى قوة تدعمه.

٧ - وجوب الاعتراف بوجود الجن وبالخوارق التي خصها الله بهم.

٨ - المؤمن الحق هو من يجعل إيمانه في تصاعد مستمر.

٩ - الإيمان نعمة توجب الشكر عليها دائمًا (لئن شكرتم لأزيدنكم).

١٠ - الحق هو المنتصر في النهاية، والباطل هو المنهزم مهما بلغت قوته وجبروته.

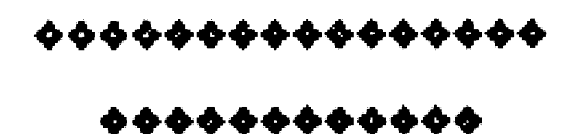
١١ - الهدية تقع موقعًا عظيمًا في قلوب الناس، تورث المودة، وتذهب العداوة، وتزيل حزازات النفوس.

١٢ - هدايا العمال رشوة، وبيع للحق بالباطل.

١٣ - أهل الدين لا ينخدعون بحطام الدنيا.

١٤ - الشرك ظلم عظيم للنفس.

١٥ - من يشكر فإنما يشكر لنفسه، والله يزيده من فضله.



المبحث الرابع

الحوار السياسي
في
قصة ذي القرنين

المبحث الرابع

الحوار السياسي في قصة ذي القرنين[1]

سأل اليهود الرسول ﷺ سؤال اختبار وامتحان عن ذي القرنين ما شأنه؟ وما قصته؟ فقال الله تعالى له: قل لهم يا محمد، سأقص عليكم من نبئه وخبره قصصًا تتلى في القرآن الكريم.

إنّا يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ومكناه التصرف فيها كيف يشاء وأعطيناه كل ما يحتاج إليه من العلم والقدرة والآلات للوصول إلى غرضه[2]، والتي منها وصوله إلى المغرب، فاتبع الطريق الذي يوصله إلى ذلك فوصل إلى منتهى جهة الغرب حيث وجد الشمس وكأنها تغرب في عين وهدة مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر فقد بلغ

---

(١) ذو القرنين هو الإسكندر الذي ملك الدنيا، قيل ملك الدنيا مؤمنان وكافران، المؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران نمروذ وبختنصر، واختلف العلماء فيه على عدة أقوال:

١ - قيل: كان عبدًا صالحًا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه.

٢ - وقيل كان نبيًا.

٣ - وقيل ملكًا من الملائكة (عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرًا ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتهم بأسماء الملائكة.

٤ - قيل: كان له قرنان: أي ضفيرتان.

٥ - قيل انقرض في وقته قرنان من الناس.

٦ - قيل: لأنه ملك فارس والروم أو الروم والترك.

٧ - قيل كان لتاجه قرنان أو كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشًا لأنه ينطح أقرانه. (الكشاف ٤٩٦/٢ و٤٩٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٦٦/٢١.

بلادًا لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات، فهو قد سار إلى بلاد تونس، ثم مراكش حتى وصل إلى البحر[1] ووجد عند تلك العين الحارة قومًا كفارًا فخيره الله بين أن يقتلهم أو يدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان.

قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا[2] ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا[3] ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ

---

(1) تفسير المراغي ١٦/١٦.

(2) أصل السبب الحبل، فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء، وقد ورد في تأويل الآية عدة أقوال للعلماء نذكر منها:

١- الزجاج: فاتبع سببًا من الأسباب التي أوتي، وذلك أنه أوتي من كل شيء سببًا فاتبع من تلك الأسباب التي أوتي سببًا في السير إلى المغرب.

٢- قيل أتبع من كل شيء علمًا يتسبب به إلى ما يريد.

٣- وقيل بلاغًا إلى حيث أراد.

٤- وقيل من كل شيء يحتاج إليه الخلق.

٥- وقيل من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء (فتح القدير ٣٠٨/٣).

(3) القراءات في (أتبع) ١- ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي (فأتبع) بقطع الهمزة، ٢- أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمر (فاتبع) بوصلها. قال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى، مثل ردفته وأردفته، ومنه قول فأتبعه شهاب ثاقب قال الأصمعي: يقال: تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه. قال النحاس: الحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهو بمعنى السير. (فتح القدير ٣٠٨/٣).

رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف/٨٣-٨٨].

قال ذو القرنين: أما من أصرَّ على الكفر وظلم نفسه فسنعذبه بالقتل، ثم يرجع إلى ربه فيعذبه في الآخرة عذابًا منكرًا في نار جهنم. وأما من صدق بالله وأحسن العمل فعمل عملاً صالحًا في الدنيا وقدم الصالحات فله المثوبة الحسنى جزاءً يتنعم فيها، وسنيسر له الدنيا فنعلمه ما يقربه إلى ربه ولا نكلفه بما هو شاق عليه.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا[1] ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف/٨٩-٩١].

ثم قفل راجعًا من مغرب الشمس وسلك طريقًا بجنده نحو مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم ليس لهم من البناء واللباس ما يسترهم من حرها، ولهم أسراب تحت الأرض يدخلونها إذا طلعت الشمس، وإذا غربت ظهروا لتحصيل معاشهم ومكاسبهم، ففعل بهم فعله بأهل المغرب فمن آمن تركه ومن كفر قتله، ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه وقد أصبح أمره من العظمة وكثرة الرجال ورفعة الشأن وبسطة الملك مما لم يتم لغيره ولا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

---

(١) ورد في تأويل سبب عدة أقوال نذكر منها:

١ - ابن عباس: يعني بالسبب المنزل.

٢ - مجاهد: أي منزلاً وطريقًا ما بين المشرق والمغرب.

٣ - قتادة: أي ابتع منازل الأرض ومعالمها.

٤ - سعيد بن جبير: علمًا.

٥ - وقيل: معالم وآثار كانت قبل ذلك. (مختصر ابن كثير ٢/٤٣٤).

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ[1] وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[2] مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

[الكهف/٩٢-٩٤].

ثم سلك طريقًا ثالثًا معترضًا بين المشرق والمغرب حيث جهة الشمال ذات الجبال الشاهقة، حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين وجد من دونهما أمة من الناس لا تكاد تفهم كلامه إلا بمشقة وعسر فقالوا: يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج قوم مفسدون بالقتل والسلب والنهب والتخريب وسائر ضروب الإفساد ووجوه الشر، فهل تحب أن نفرض لك جزءًا من أموالنا فتجعل بيننا وبينهم حاجزًا يمنعهم من الوصول إلينا.

---

(١) (السدين) قرئ: ١- السُدين: بالضم، وهو ما كان من خلق الله تعالى لأن السد بالضم فعل بمعنى مفعول: أي هو مما فعله الله تعالى وخلقه. ٢- السَدين: بالفتح: وهو ما كان من عمل العباد لأن السد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس. (الكشاف ٢٢٥/٤٩٨).

(٢) يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، قال ﷺ: "إن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، حينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه – يأجوج ومأجوج" اخرجه البخاري ومسلم. وعن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: "ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام ابو السودان، ويافث أبو الترك" قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أي الترك، وقال: إنما سمي هؤلاء تركًا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة. (مختصر ابن كثير ٤٣٥/٢). قال أكثر العلماء: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان بدليل منع صرفهما، وقيل مشتقتان من أج الظليم في مشيه إذا هرول، وتأججت النار إذا التهبت، وقرأها الجمهور بغير همز وقرأ عاصم بالهمز. (فتح القدير ٣١١/٣).

فجاوبهم ذو القرنين:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ(١) قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(٢) ۝ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا(٣) ۝ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف/٩٥-٩٨].

قال ذو القرنين: إن ما بسطه الله عليّ من القدرة والملك وبسطة السلطان ووفرة المال خير مما تبذلونه لي من المال فلا حاجة لي به، ولكن ساعدوني بالأيدي والرجال الذين يحسنون العمل والبناء، أجعل بينكم وبينهم سدًا منيعًا، وحاجزًا حصينًا، أعطوني قطع الحديد، فلما جاءوا به أخذ يبني شيئًا فشيئًا حتى صارت قطع الحديد تسد ما بين الجبلين ومساوية لهما في العلو قال للصناع: انفخوا بالمنافيخ عليه، حتى إذا جعله كالنار من شدة الإحماء والتوهج صب عليه

---

(١) قال أبو عبيدة: (الصدفين) هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما، وقال الزهري وابن عباس كأنه يعرض عن الآخر، من الصدوف. قال الشاعر: كلا الصدفين ينفذه سناها

توقد مثل مصباح الظلام. (القرطبي ١١/٦١).

(٢) بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشًا سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتونه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هنالك، وأن عنده حراسًا من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع، ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. (مختصر ابن كثير ٢/٤٣٦).

(٣) أي أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه (مختصر ابن كثير ٢/٤٣٦).

النحاس المذاب فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا، فما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوقه لارتفاعه وملامسته وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته فأغلق عليهم الطريق.

فقال ذو القرنين: هذا السد الذي أقمناه نعمة من الله ورحمة بعباده إذ صار حاجزًا بينكم وبين القوم المفسدين منعهم من أن يعيثوا في أرضكم بالفساد فإذا جاء وعد الله ودنا وقت خروجهم من وراء السد جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدمًا كأن لم يكن بالأمس وكان كل ما وعد به سبحانه كائنًا لا محالة.

فلما فرغ من السد دفع إلى أمة صالحة يهدون بالحق وبه يعدلون، فوجد أمة مقسطة مقتصدة، يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، ويتآسون ويتراحمون، حالهم واحدة، وكلمتهم واحدة، وأخلاقهم مشتبهة، وطريقتهم مستقيمة، وقلوبهم متآلفة، وسيرتهم حسنة، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليس بينهم قضاة، وليس بينهم أغنياء، ولا ملوك، ولا أشراف، ولا يتفاوتون، ولا يتفاضلون، ولا يختلفون، ولا يتنازعون، ولا يستبون، ولا يقتتلون، ولا يقحطون، ولا يحردون، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس وهم أطول الناس أعمارًا، وليس فيهم مسكين ولا فقير، ولا فظ، ولا غليظ، فلما رأى ذلك ذو القرنين من أمرهم، عجب منه!

وقال: أخبروني أيها القوم خبركم، فإني قد أحصيت الأرض كلها برها وبحرها، وشرقها وغربها، ونورها وظلمتها، فلم أجد مثلكم، فأخبروني خبركم.

قالوا: نعم، فسلنا عما تريد.

قال ذو القرنين: أخبروني، ما بال قبور موتاكم على أبواب بيوتكم؟

قالوا: عمدًا فعلنا ذلك لئلا ننسى الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا.

قال ذو القرنين: فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب؟

قالوا: ليس فينا متهم، وليس منا إلا أمين مؤتمن.

قال ذو القرنين: فما لكم ليس عليكم أمراء؟

قالوا: لا نتظالم.

قال ذو القرنين: فما بالكم ليس فيكم حكام؟

قالوا: لا نختصم.

قال ذو القرنين: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟

قالوا: لا نتكاثر.

قال ذو القرنين: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟

قالوا: لا نتكابر.

قال ذو القرنين: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟

قالوا: من قبل ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا.

قال ذو القرنين: فما بالكم لا تستبون ولا تقتتلون؟

قالوا: من قبل أنا غلبنا طبائعنا بالعزم وسسنا أنفسنا بالأحلام.

قال ذو القرنين: فما بالكم كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة مستوية؟

قالوا: من قبل أنا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضًا.

قال ذو القرنين: فأخبروني من أين تشابهت قلوبكم، واعتدلت سيرتكم؟

قالوا: صحّت صدورنا، فنزع بذلك الغل والحسد من قلوبنا.

قال ذو القرنين: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟

قالوا: من قبل أنا نقتسم بالسوية.

قال ذو القرنين: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟

قالوا: من قبل الذل والتواضع.

قال ذو القرنين: فما جعلكم أطول الناس أعماراً؟

قالوا: من قبل أنا نتعاطى الحق ونحكم بالعدل.

قال ذو القرنين: فما بالكم لا تقحطون؟

قالوا: لا نغفل عن الاستغفار.

قال ذو القرنين: فما بالكم لا تحردون؟

قالوا: من قبل أنا وطأنا أنفسنا للبلاء منذ كنا وأحببناه وحرصنا عليه.

قال ذو القرنين: فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس؟

قالوا: لا نتوكل على غير الله، ولا نعمل بالأنواء والنجوم.

قال ذو القرنين: حدثوني أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟

قالوا: نعم وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم ويواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويستغفرون عن ذنبهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أماناتهم، ويحفظون وقتهم لصلاتهم، ويوفون بعهودهم، ويصدقون في مواعيدهم ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم، فأصلح الله لهم بذلك أمرهم وحفظهم ما كانوا أحياء، وكان حقاً على الله أن يحفظهم في تركتهم[1].

(١) الطبري: ١٦/٢٠ و٢١.

الدروس والعبر المستقاة من القصة

١ - التمكين في الأرض لبعض العباد من اختصاص الله سبحانه وتعالى.

٢ - القدرات التي يمنحها الله لعباده يجب أن تستخدم في إعمار الأرض وعمل الخير.

٣ - الدنيا ليست شرًّا كلها، فكما يوجد فيها المفسدون العابثون هناك الخيِّرون الصالحون، والله سبحانه وتعالى يتولى أمرهم جميعًا.

٤ - إن الملك والسلطان والفتح والعمران والتمكين والتصرف من نعم الله التي يمن بها على عباده.

٥ - من أساليب الدعوة الناجحة الدعوة بالحسنى إلى الإيمان والهداية.

وقفة وتأمل

إن المتمعن في قراءة هذه الحوارات يجد أن حكمة الله اقتضت نزول آدم وحواء إلى الأرض بعد أن كانا سعيدين في الجنة يرتعان وينهلان من معينها ما يشاءان من طيبها ونعيمها بعد إغواء الشيطان لهما بأكل ثمار الشجرة التي حرَّمها الله عليهما.

وعلى الأرض ومع مرور الزمن كثر نسل آدم وحواء وظهر من بينهم المفسدون العابثون كما ظهر الخيرون المهتدون.

وعندما يكثر الفساد وينتشر ويعم اقتضت حكمة الله رأفة بعباده أن يرسل لهم بين الآونة والأخرى رسلاً من أقوامهم تهديهم للتي هي أقوم، يبينون لهم أن المستحق للعبادة هو خالقهم ورازقهم الله سبحانه وتعالى، وليس الشمس أو القمر أو النار أو الأصنام التي يصنعونها بأيديهم والتي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقالوا هكذا وجدنا آباءنا يفعلون.. ولكن هناك من هداه الله فاستجاب ونال رضى الله سبحانه وتعالى، وهناك من بقي على كفره وإلحاده، فتوعده الله بعقابه في الدنيا والآخرة.

وما يوسف وموسى وسليمان وذو القرنين إلاّ أنبياء ورسل وصالحون اختارهم الله سبحانه وتعالى ليبلغوا رسالة ربهم إلى أقوامهم وغير أقوامهم.

فبعد أن أوحى الله لهم زودهم بصفات ومعجزات وخوارق وقدرات تعينهم على أداء مهمتهم، فيوسف عليه السلام كان نصيبه الجمال الخَلقي والخُلقي وتأويله للرؤى.

وموسى عليه السلام زوده الله سبحانه وتعالى بالقدرة البدنية، وجعل عصاه تنطق بالخوارق والمعجزات، فبها تفجرت المياه من الصخر، وبها انفلق البحر فكان نجاة لقومه وهلاكًا لفرعون وجنوده، وبها انقلبت إلى أفعى ابتلعت حبال السحرة.

وأما سليمان فقد أعطاه الله ملكًا لم يعطه لأحد من قبله، وجعله حاكمًا للإنس والجن، بفهم لغة الطير والحيوانات، وأمده بقوة عظيمة.

وأما ذو القرنين فقد أمده الله بقدرات وعلم ومعرفة، وتنقل مع جيشه من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق.

وبالرجوع إلى قصة يوسف عليه السلام نجد أن جماله الخلقي والخلقي ورؤياه التي قصها على أبيه كانت مصدر حسد إخوته ومصدر متاعبه ومعاناته، فجماله الخلقي كان ابتلاء له مع امرأة العزيز، وتأويله للرؤى أصبح فرجًا له فخرج من السجن بعد أن قضى فيه بضع سنين. أما جماله الخُلُقي وأمانته إذا أضفنا إليهما أسلوبه الحواري الذي امتاز باللين والهدوء واختياره للألفاظ المناسبة فكانت جميعها مؤهلات له كي يكون سيد الموقف وأمينا على خزائن الدولة، فهو المنتصر في النهاية، وقد كافأه الله سبحانه وتعالى بأن لمَّ شمل العائلة من جديد، فسجد له أبواه (انظر القصة) وبذلك تحقق تأويل الرؤيا. والعاقبة للمتقين.

وأما المعجزات التي وهبها الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى ومنها العصا التي قال عنها موسى: هي عصاي أهش بها على غنمي ولي بها مآرب أخرى، فكانت معجزة في زمن ساد فيه السحر وكثرت الشعوذة، فأراد الله تعالى أن يظهر السحر على حقيقته ويدحضه أمام معجزة العصا التي لم تكن سحرًا كما ظن فرعون وزبانيته، والتي جعلت السحرة يلقون سجَّدًا وقالوا:

آمنًا بربِّ هرون وموسى، وكان موسى خاطبهم من قبل: (قال لهم موسى: ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى).

ومما عزز انتصاره في هذه المعركة الحاسمة بين الكفر والإيمان طريقة حواره مع فرعون التي امتازت بالهدوء واللين كما أمر الله سبحانه وتعالى والإنصات وإمساكه بطرف حبل الحوار الذي لم يفلت منه لحظة لعلمه بطبيعة خصمه المتمثلة بالجهل والعناد والمكابرة والتلويح المستمر باستخدام العنف وإيقاع أشد العقوبات بخصمه، والتي سقطت جميعها ولم تفلح أمام الإيمان والصبر والثقة العالية بالنفس وكل ما ذكرناه آنفًا من الصفات.

وإذا عدنا لقصة سليمان عليه السلام فنجد أن الحوار قد لعب دورًا أساسيًّا، فرغم قوة سلطان بلقيس ملكة سبأ، فإنها حاورت أشراف قومها الذين أشاروا بالموافقة على إرسال هدية مناسبة لسليمان عله بذلك يقلع عن فكرته ويتركهم وشأنهم.

كذلك رغم الملك الذي ورثه سليمان عن أبيه داود والذي لم يعط لأحد من قبله، فإن حوار سليمان مع بلقيس بداية عن طريق كتابه الذي حمله الهدهد لها، والذي قال فيه:

(.... إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلو عليَّ واتوني مسلمين).

فالمتمعن بالكتاب يجد أنه يمتاز بالقصر وبكلماته المحدودة، ولكن فيه نبرة القوة، لأنه عرف قوة سلطانها، فأبرز أن سلطانه هو الأقوى بالإضافة إلى عبارة بسم الله الرحمن الرحيم التي لم تعهدها بلقيس من قبل، وهكذا تراءى لها أنها أمام قوة لا قبل لها بها.

وقد أكد سليمان على قوة سلطانه عندما حاور الوفد القادم من سبأ حاملاً هدية بلقيس، فقال: (أتمدونني بمال، فما أتاني الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.

وعندما حضرت بلقيس إلى ملك سليمان ورأت عرشها دار حوار بينها وبين سليمان كان له أثر إيجابي في التخلي عن عبادتها السابقة لغير الله. (قالت: ربِّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين).

وبالرجوع إلى قصة ذي القرنين الذي يسَّر الله له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ومكّنه من حسن التصرف بها، فقد التقى أثناء فتوحاته أربعة أقوام، ومن خلال استخدام لغة الحوار معهم استطاع أن يقف على حقيقة كل قوم من حيث الإيمان والكفر ومدى احتياجاته وطلباته فساند ودعم من يستحق الدعم والمساعدة، وعاقب كل من أصرَّ على عناده وكفره.



الخاتمة

الخاتمة

لقد كان المنهج الذي سلك في معالجة الحراك الحواري ودراسة جوانبه المختلفة هو تتبع كل من كتب في هذا الموضوع قديمًا وحديثًا وجمعها، وبعد تتبع نصوص القرآن الكريم وجمعها تم وصفها وصفاً تحليليًا بالتعامل مع هذه النصوص مباشرة ورصدها من داخلها وتحليلها إلى عناصر جزئية يتكون منها الحراك الحواري ، ومن خلال هذه الرحلة الطويلة مع النصوص تبلور الإطار النهائي للحراك الحواري وتبين بأن له جذورًا تربطه بالماضي مما يجعل القارئ والباحث يحس كل منهما أن الموضوع قريب من نفسه ولغته وأن جذور ضاربة في الماضي البعيد وأنه مشرق كالشمس في الحاضر والمستقبل.

فالحراك الحواري في العقيدة ركيزة أساسية من ركائز الفكر الإسلامي، وللعقيدة الصحيحة تأثير بالغ في النفوس ينضبط بها الفكر وتدين بها الأمة فلا ترضى العنان لنفسها في اتجاهاتها الفكرية .

والحراك الحواري في الأخلاق مستمد من العقيدة مرتبط بالحكمة أيما ارتباط يضع كل شئ في موضعه .

والحراك الحواري الاجتماعي بين أن الإنسان اجتماعي بطبعه ومدفوع بطبيعته لأن يعيش في وسط جمعي ولا سبيل له سواه وهو يرتبط بغيره من الأفراد والجماعات بعلاقات وفي ظلها يتفاعل عن الحوار .

والحراك الحواري السياسي لإصلاح الفرد والمجتمع؛ لذا رسم القرآن الكريم شكل السلطة والمجتمع بصورة متكاملة وقدم تشريعات لجميع الأمور وجعل

السبيل الأفضل لتحقيقها عن طريق الحراك الحواري؛ فخرج هذا الكتاب نتيجة لدراسة مستفيضة وبحث مستمر في نصوص كثيرة منتشرة في مصادر متنوعة الاتجاهات، مما ساهم في إخراجه كدراسة وافية شاملة عن الحراك الحواري في القرآن الكريم لتلبى حاجة المجتمع الإسلامي خاصة والمجتمعات البشرية عامة من موضوع أهمله المسلمون حقبة من الزمن.

وانني لأحمد الله تعالى على تمامه والشكر على فضله وإنعامه فإذا رأى القارئ العزيز خيرًا وصوابًا فمن الله واذا رأى خطأ أو تقصيرًا فمني ومن الشيطان، والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

(١) القرآن الكريم.

(٢) الأجري: (أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله):

أخلاق العلماء- الرياض، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٣) الأصفهاني:

محاضرات الأدباء.

(٤) الأصفهاني: (أبو نعيم أحمد بن عبدالله):

دلائل النبوة، عالم الكتب، بيروت.

(٥) الأصمعي: (أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك):

(١٢٢هـ - ٢١٦هـ) الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥م.

(٦) ابن الأثير: (عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد):

أسد الغابة، دار الشعب.

(٧) ابن الأثير الجزري: (الإمام محي الدين أبي السعادات المبارك بن محمد (٥٤٤هـ- ٦٠٦هـ)

جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبدالقادر الارناؤوط، مطبعة الملاح، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

(٨) ابن الجوزي: (جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن- ٥٩٧هـ):

صيد الخاطر، تحقيق السيد محمد سيد، سيد إبراهيم، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

(٩) ابن الجوزية: (أبو الفرج عبدالرحمن):

الوفا بأحوال المصطفى، ط١، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٦هـ.

(١٠) ابن الحديد:

شرح نهج البلاغة: تحقيق الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣م.

(١١) ابن القيم الجوزية:

زاد المعاد في هدى خير العباد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.

(١٢) ابن تيمية: (أحمد بن تيمية):

الفتاوى الكبرى، مطابع الرياض، الرياض، ١٣٨٢هـ.

(١٣) ابن حجر: (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني):

فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.

(١٤) ابن حجر: (أحمد بن علي):

الإصابة في تميز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٥) ابن حنبل: (أحمد بن محمد):

المسند، تحقيق أحمد شاكر، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٠م.

(١٦) ابن خزيمة: (أبو بكر محمد بن اسحق):

صحيح ابن خزيمة، ط٢، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، ١٤٠١ هـ.

(١٧) ابن دقيق العيد:

شرح الأربعين النووية، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة.

(١٨) ابن رجب: (زيد الدين أبي الفرج عبدالرحمن بني شهاب الدين):

جامع العلم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية.

(١٩) ابن زكريا: (أبي الحسين أحمد بن فارس):

معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، ط١، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٦ هـ.

(٢٠) ابن زكريا: (أبي الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥ هـ):
مجمل اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبدالمحسن سلطان/ ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
(٢١) ابن عبد البر:
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر.
(٢٢) ابن قتيبة: (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المردزي الدنيوري):
أدب الكتاب، ط٤، مصر: مطبعة السعادة، ١٣٨٢ - ١٩٦٣م.
(٢٣) ابن قدامة المقدسي:
مختصر منهاج القاصدين، مؤسسة علوم القرآن للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٨ هـ
(٢٤) ابن قيم الجوزية:
مفتاح دار السعادة، ط٣، مكتبة حميدو الإسكندرية، ١٣٩٩ هـ.
(٢٥) ابن قيم الجوزية: (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن بكر بن أيوب):
زاد المعاد في هدى خير العباد، مطبعة السنة المحمدية، مصر، ١٣٧١ هـ
(٢٦) ابن كثير:
البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ط١، بيروت، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م.
(٢٧) ابن ماجة: (أبو عبدالله محمد بن يزيد):
سنن ابن ماجة، دار إحياء التراث العربي، مصر ١٣٩٥ هـ.
(٢٨) ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم):
لسان العرب، دار صادر، بيروت
(٢٩) ابن نجم: (ناصح الدين عبدالرحمن) (٥٥٤ - ٦٣٤ هـ):
كتاب استخراج الجدل من القرآن، تحقيق زاهر بن عواض الألمعي، ط٢، ١٤٠١ هـ

(٣٠) ابن هشام:

السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م.

(٣١) أبو داود: (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي):

سنن أبي داود، دار الجليل، بيروت.

(٣٢) البخاري:

الأدب المفرد.

(٣٣) البخاري: (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل):

صحيح البخاري، ط٥، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

(٣٤) البروسوي: (إسماعيل حقي البروسوي):

تنوير الأذهان، ط١، تحقيق محمد علي الصابوني، دمشق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

(٣٥) البغوي: (الحسين بن مسعود):

شرح السنة، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

(٣٦) البيهقي: (أبو بكر أحمد بن الحسين):

السنن الكبرى، ط١، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، الهند، ١٣٥٤هـ

(٣٧) الترمذي: (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة):

سنن الترمذي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة البابي، مصر، ١٣٩٧هـ.

(٣٨) الجرجاني: (علي بن محمد بن علي السيد الزين):

التعريفات، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٧هـ.

(٣٩) الجوهري: (إسماعيل بن حماد):

الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٩م.

(٤٠) الحاكم: (ابن عبد الله الحاكم النيسابوري):

المستدرك، دار المعرفة، بيروت.

(٤١) الدارقطني: (الإمام الكبير علي بن عمر الدارقطني):

سنن الدارقطني، دار المحاسن للطباعة، مصر، ١٣٨٦هـ.

(٤٢) الدارمي: (أبو محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن):
سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، ١٣٤٩ هـ.
(٤٣) الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان):
سير أعلام النبلاء، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ.
(٤٤) الذهبي: (شمس الدين أبي عبدالله الذهبي):
تذكرة الحفاظ، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٤٥) الرازي: (محمد فخر الدين بن العلامة ضياء الدين):
تفسير الرازي، المطبعة المصرية، بولاق، مصر.
(٤٦) الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر):
مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٤٧) الزبيدي:
تاج العروس، بيروت.
(٤٨) الزبيدي: (محمد مرتضى الحسيني):
تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبدالكريم العزباوي، مراجعة عبدالستار أحمد فرج، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.
(٤٩) الزرقاني: (أبو عبدالله محمد بن عبدالباقي بن يوسف):
شرح موطأ الإمام مالك، ط١، البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٢ هـ.
(٥٠) الزركلي: (خير الدين):
الأعلام، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.
(٥١) الزمخشري: (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر):
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
(٥٢) السيوطي والمحلي (جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي):
تفسير الجلالين، مراجعة مروان سوار، ط٣، بيروت، دار المعرفة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥٣) الشاطبي:

الاعتصام، دار المعرفة، بيروت.

(٥٤) الشافعي: (محمد بن ادريس):

الرسالة.

(٥٥) الشوكاني: (محمد بن علي بن محمد):

فتح القدير، دار المعرفة، بيروت.

(٥٦) الشوكاني: (محمد بن علي):

فتح القدير، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

(٥٧) الضبي: (المفضل الضبي):

المفضليات، تحقيق أحمد شاكر، مصر دار المعارف، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م.

(٥٨) الطبراني: (أبوالقاسم سليمان بن أحمد):

المعجم الكبير، الدار العربية للطباعة، بغداد.

(٥٩) الطبراني: (أبوالقاسم سليمان بن أحمد):

المعجم الصغير.

(٦٠) الطبري: (أبي جعفر محمد بن جرير) ط٢/القاهرة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

(٦١) الغزالي: (أبو حامد محمد بن محمد):

إحياء علوم الدين، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

(٦٢) الفيروز أبادي: (مجد الدين محمد بن يعقوب) (ت٨١٧ هـ)

القاموس المحيط، القاهرة، مؤسسة الحلبي و شركاه للنشر و التوزيع.

(٦٣) القرطبي : (أبي عبدالله محمد بن يعقوب) (ت ٨١٧ هـ) :

الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

(٦٤) مالك: (مالك بن أنس الأصبحى):

الموطأ، ط١، دار الريان للتراث، مصر، ١٤٠٨هـ.

(٦٥) الماوردي : (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري)(٤٥٠هـ):

أدب الدنيا والدين، ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨-١٩٧٨م.

(٦٦) المباركفوري : (أبو العلاء محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم):
تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.
(٦٧) المروزي: (محمد بن نصر المروزي):
السنة، مطابع دار الفكر، دمشق.
(٦٨) مسلم: (ابوالحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري):
صحيح مسلم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
(٦٩) المقدسي: (محمد بن مفلح المقدسي):
الآداب الشرعية والمنح المرعية، الرياض، ١٩٧٧م.
(٧٠) المنذري: (الإمام الحافظ زكي الدين عبدالعظيم):
الترغيب والترهيب، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ.
(٧١) النسائي: (أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي):
سنن النسائي، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
(٧٢) النووي: (محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف):
صحيح مسلم بشر النووي، دار الفكر.
(٧٣) النووي: (زكريا يحيى بن شرف):
رياض الصالحين، ط٤، دار المأمون للتراث، دمشق.

****

****

ثانيًا: أهم المراجع

(١) ابراهيم إمام: الإعلام والاتصال بالجماهير - ط٢: مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م.

(٢) أبو الأعلى المودودي: تذكرة دعاة الرسلام، جدة، الدار السعودية للنشر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٣) أبو بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي القدير - ط٣: جدة، راسم للدعاية والإعلان.

(٤) أبي عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع - ط١، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢م.

(٥) أحمد أمين: النقد الأدبي - ط٤: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

(٦) أحمد الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر - حلب: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م.

(٧) أحمد الهاشمي: جواهر الأداب.

(٨) أحمد بدر: الرأي العام - ط٢: الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨٢م.

(٩) أحمد رضا: معجم متن اللغة، (د.ط): دار مكتبة الحياة، ١٢٧٧هـ - ١٩٥٨م.

(١٠) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية، ط١: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م.

(١١) أحمد عبدالغفور عطار: آداب المتعلمين ورسائل أخرى، (تحقيق) ط٢: بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

(١٢) أحمد عمر هاشم: قواعد أصول الحديث - ط١: بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

(١٣) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(١٤) أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي: ط٢: بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م.

(١٥) أكرم العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة.

(١٦) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها – ط١: القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م.

(١٧) إحسان خليل الآغا : أساليب التعلم والتعليم في الإسلام – ط١ : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

(١٨) بكر بن عبدالله أبو زيد : حلية طالب العلم – ط١ : الرياض، مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

(١٩) البهي الخولي : تذكرة الدعاة – ط٦: الكويت، مكتبة الفلاح، ١٣٨٩هـ- ١٩٧٩م.

(٢٠) التهامي نقرة : سيكلوجية القصة في القرآن – الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م.

(٢١) توفيق الحكيم : فن الأدب – القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعتها.

(٢٢) تيسير محجوب الفتياني : مقومات رجل الإعلام الإسلامي، عمان، دار عمار، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

(٢٣) جان جزنوف : دعائم علم الاجتماع- ترجمة عادل العوا، ط١، دمشق، ١٩٨٩م.

(٢٤) جبور عبدالنور : المعجم الأدبي.

(٢٥) جول لابول : تفضيل آيات القرآن الكريم، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

(٢٦) جيلبرت هايت : فن التعليم – ترجمة ومراجعة محمد فريد أبو حديد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٤م.

(٢٧) جيهان رشتي نظم الاتصال، دار الفكر العربي.

(٢٨) جيهان رشتي : الأسس العلمية لنظريات الاتصال- ط٢ : دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.

(٢٩) حسن أيوب : السلوك الاجتماعي في الإسلام – ط٥ : دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

(٣٠) حسن الشرقاوي : نحو علم نفس إسلامي، الاسكندرية، منشأة المعارف.

(٣١) الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع- ط١ : حلب، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢م.

(٣٢) حسين عبدالحميد رشوان : العلاقات العامة والإعلام، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٧م.

(٣٣) خلف محمد الحسيني : التبيان في منهاج الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

(٣٤) ربيع بن هادي المدخلي : منهج الأنبياء في الدعوة الى الله فيه الحكمة والعقل، ط٢، المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

(٣٥) رمضان لاوند: من قضايا الإعلام في القرآن، مطابع الهدف.

(٣٦) رنسيس لبكرت: أنماط جديدة في الإدارة.

(٣٧) رياض صالح جنزولي: قطوف من الأدب النبوي مع مقدمة في علوم السنة والحديث ط١: بيروت- دار القرآن الكريم.

(٣٨) رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي، العراق، دار الرشيد للنشر.

(٣٩) زاهر الألمعي: مناهج الجدل في القرآن- ط٤: الرياض، مطابع الفرزدق ١٤٠٤هـ.

(٤٠) السباعي بيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي.

(٤١) السباعي بيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م.

(٤٢) سعيد أحمد علي: بحوث في التربية الإسلامية، ط١: الجيزة، مركز التنمية البشرية والمعلومات، ١٩٨٧م.

(٤٣) سليم عبدالله حجازي: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية.

(٤٤) السيد سابق: دعوة الإسلام، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٧٣م.

(٤٥) سيد قطب: في ظلال القرآن- ط٤: بيروت، القاهرة، دار الشروق، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

(٤٦) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ط١، الكويت: الاتحاد الإسلامية العالي

(٤٧) سيد قطب: معالم في الطريق، ط١٠، بيروت: دار الشروق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٤٨) سيد محمد الشنقيطي: مفاهيم إعلامية- ط١: الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٤٩) سيف الدين شاهين:آداب الحوار في الإسلام- ط١: راسم للدعاية والإعلان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

(٥٠) شاهيناز طلعت: وسائل الإعلام والتنمية الاجتماعية- ط١: مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

(٥١) شوقي ضيف: النقد الأدبي- ط٤: القاهرة، دار المعارف.

(٥٢) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط١: الرياض، دار الرشيد والتوزيع، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٥٣) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، دليل عملي على الحوار، ط١، الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٥٤) طه جابر فياض العلواني: آداب الاختلاف في الإسلام- ط٢: السعودية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١م.

(٥٥) طه عبدالفتاح مقلد:

الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتلفزيون، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٥م.

(٥٦) عبدالبديع صقر:

كيف ندعو الناس- ط٧: القاهرة، مكتبة وهبة، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

(٥٧) عبدالحليم حفني:

أسلوب المحاورة في القرآن الكريم- ط٢: مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

(٥٨) عبدالحميد الهاشمي: الرسول العربي المربي، دار الثقافة للجميع، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٥٩) عبدالرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية- ط١: دمشق، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(٦٠) عبدالرحمن النحلاوي: التربية بالآيات- ط١: بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٦١) عبدالرحمن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها- ط٢: دمشق، بيروت، دار القلم، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(٦٢) عبدالرحمن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة- ط١: دمشق، بيروت، دار القلم، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

(٦٣) عبدالرحمن حبنكة الميداني: مبادئ في الأدب والدعوة- ط١: دمشق، بيروت، دار القلم، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

(٦٤) عبدالرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها- ط١: دمشق، بيروت، دار القلم، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(٦٥) عبدالسلام محمود الشافعي : قصة آية.

(٦٦) عبداللطيف حمزة : الإعلام في هدى الإسلام- ط٢: دار الفكر العربي ١٩٧٨م.

(٦٧) عبدالغني أحمد ناجي : من صور الحوار في سورة الكهف.

(٦٨) عبدالغني محمد سعد بركة : أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا- ط١: القاهرة، دار غريب للطباعة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٦٩) عبدالقادر حاتم : الإعلام في القرآن الكريم، مصر، مطابع الأهرام التجارية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٧٠) عبدالقادر طاش : لنتعلم آداب الحوار (مقال).

(٧١) عبدالكريم زيدان : أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

(٧٢) عبداللطيف القرقور : تهافت الفكر الجدلي.

(٧٣) عبدالله سراج الدين : هدي القرآن إلى الحجة والبرهان- ط١: حلب، المكتبة دار الفلاح ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

(٧٤) عبدالوهاب النجار : قصص الأنبياء- ط٣: دار إحياء التراث، بيروت.

(٧٥) عطية سالم : السؤال والجواب.

(٧٦) عفيف طبارة : روح الدين الإسلامي.

(٧٧) علي بن محمد ناصر الفقيهي : منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان- ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

(٧٨) علي جريشة : مناهج الدعوة وأساليبها، ط١، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

(٧٩) علي جريشة : آداب الحوار والمناظرة- ط١: المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

(٨٠) عمارة نجيب : الإعلام في ضوء الإسلام- ط١: الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(٨١) عمر الأسعد :التعليم الابتدائي، دار العلوم، ١٣٩٦هـ.

(٨٢) عمر بهاء الدين الأميري : الحوار نافذة من نور (مقال).

(٨٣) فؤاد زكريا : التفكير العلمي، الكويت، ذات السلاسل.

(٨٤) الفاروق زكي يونس : الخدمة الاجتماعية والتغير الاجتماعي، القاهرة عالم الكتب.

(٨٥) فتح الباب عبدالحليم سعيد : وسائل التعليم والإعلام.

(٨٦) فتح الرحمن أحمد محمد الجعلي : الإيمان بالله والجدل الشيوعي- ط١: جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

(٨٧) فريال مهنا : تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري- ط١: دمشق دار طلاس، ١٩٨٩م.

(٨٨) فضل حسن عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ط١: الأردن، دار الفرقان، ١٩٨٧م.

(٨٩) فهمي هويدي : الاختلاف الذي لا بد منه (مقال).

(٩٠) كريم محمد حمزة : أوضاع مؤسسات الرعاية الاجتماعية ودورها في خدمة المجتمع العربي الخليجي.

(٩١) لاجوس اجري : فن الكتابة المسرحية، ترجمة دريني خشبة، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية.

(٩٢) ليلى العطار الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية- ط١: جدة، تهامة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

(٩٣) ماجد عرسان الكيلاني : تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية- ط٢: بيروت، دار بن كثير. ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

(٩٤) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار القرآن الكريم ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٩٥) مجاهد محمد محمد هريدي:منهج القرآن والسنة في العلاقات الإنسانية- ط١: مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٩٦) محسن محمد عبدالناظر:حوار الرسول ﷺ مع اليهود، ط١، الكويت: دار الدعوة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٩٧) محمد أبو الفتح البيانوني:المدخل إلى علم الدعوة: ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٩٨) محمد أبو زهرة: الدعوة إلى الإسلام.

(٩٩) محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم- ط٢: القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م.

(١٠٠) محمد أحمد عيسوي: تفسير ابن سعود- ط١: السعودية، شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٥م.
(١٠١) محمد الداودي: دعوات الأنبياء الصالحين:
(١٠٢) محمد السلطان: مدخل إلى الخدمة الاجتماعية.
(١٠٣) محمد السيد الداودي: من كنوز القرآن، القاهرة، دار المعارف ١٩٧١م.
(١٠٤) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والنذير، تونس، الدار التونسية للنشر.
(١٠٥) محمد الغزالي: مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة.
(١٠٦) محمد الغزالي: المحاور الخمسة- ط٢: القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
(١٠٧) محمد بن حسن الزير:القصص في الحديث النبوي- ط١: القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
(١٠٨) محمد خير رمضان يوسف: الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب- ط١: ١٤٠٧هـ- ١٩٧٨م.
(١٠٩) محمد رشاد سالم: المدخل إلى الثقافة الإسلامية، ط٨، الكويت: دار العلم، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.
(١١٠) محمد رشيد رضا:الوحي المحمدي.
(١١١) محمد رضا محرم: أفكار الآخرين (أبحاث).
(١١٢) محمد زياد حمدان:طرق سائلة للتدريس الحديث، الحوار والأسئلة الصفية، عمان دار التربية الحديثة، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٥م.
(١١٣) محمد سيد محمد: المسؤولية الإعلامية في الإسلام- ط١: الرياض القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
(١١٤) محمد غربال: الموسوعة العربية الميسرة.
(١١٥) محمد غنيمي هلال:النقد الأدبي الحديث، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣م.
(١١٦) محمد فؤاد عبدالباقي:المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، استانبول، المكتبة الإسلامية، ١٩٨٤م.
(١١٧) محمد قطب: دراسات قرآنية، بيروت، دار الشروق.
(١١٨) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية- ط٢: بيروت دار الشروق بيروت.

(١١٩) محمد قمبر: دراسات تراثية في التربية الإسلامية- ط١: الدوحة، دار الثقافة.

(١٢٠) محمد متولي الشعراوي:معجزة القرآن- ط١: مكتبة التراث الإسلامي ١٩٨٨م.

(١٢١) محمد محمود حجازي: التفسير الواضح.

(١٢٢) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن- ط١: مصر دار الكتاب الحديثة، ١٣٩٠هـ- ١٩٦٩م.

(١٢٣) محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه- ط١: بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(١٢٤) محمد منير مرسي: تاريخ التربية في الشرق والغرب.

(١٢٥) محمد موفق الغلاييني: وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة- ط١: جدة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(١٢٦) محمد نمر الخطيب: مرشد الدعاة، ط١، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(١٢٧) محمد نور سويد: منهج التربية النبوية للطفل- ط٢: الكويت،مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(١٢٨) محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث- ط١: الرياض، مطبعة المدينة، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

(١٢٩) محمود حسن: مقدمة الخدمة الاجتماعية، القاهرة، دار النهضة.

(١٣٠) محمود عبد الحليم منسي: قراءات في علم النفس.

(١٣١) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن- ط١٢: بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

(١٣٢) ميشال عاصي:الفن والأدب- ط٢: منشورات بيروت، المكتب التجاري، ١٩٧١م.

(١٣٣) ناصر الحالي: المصطلح في الأسلوب الغربي- ط١: بيروت، دار المكتبة العصرية، ١٩٦٨م.

(١٣٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي:في أصول الحوار- ط٢: جدة- مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

(١٣٥) نظام بركات وعثمان الرواف، ومحمد الحلوة:مبادئ علم السياسة- ط٢: عمان، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.

(١٣٦) نوال محمد عمر: دور الإعلام الديني.

(١٢٧) هاني يحيى نصري: في سبيل علم اجتماعي إسلامي.

(١٢٨) ولبورشرام: أجهزة الإعلام والتنمية، ترجمة محمد فتحي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

(١٣٩) يوسف خياط ونديم مرعشلي: لسان العرب المحيط، بيروت، دار لسان العرب.

(١٤٠) يوسف مصطفى القاضي ومقداد بالجن:علم النفس التربوي الإسلامي، الرياض، دار المنهج، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.





فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة..	٠٥
الفصل الأول: الحوار في العقيدة/ تمهيد	٠٩
المبحث الأول: حوار نوح (عليه السلام) وجدل قومه................	١٥
المبحث الثاني: حوار هود (عليه السلام) وجدل قومه	٢٩
المبحث الثالث: حوار صالح (عليه السلام) وجدل قومه............	٤٧
المبحث الرابع: حوارات إبراهيم (عليه السلام)........................	٦٥
الفصل الثاني: الحوار في الأخلاق/ تمهيد........................	٨٣
المبحث الأول: حوار لوط (عليه السلام) وجدل قومه	٨٩
المبحث الثاني: حوار يوسف(عليه السلام) وجدل قومه	١٠١
المبحث الثالث: حوار شعيب(عليه السلام) وجدل قومه...........	١١٥
المبحث الرابع: الحوار الأخلاقي في قصة قارون(عليه السلام)	١٣٣

الفصل الثالث: الحوار الاجتماعي/تمهيد.................................١٤٧
المبحث الأول: الحوار الاجتماعي في قصة إبراهيم عليه السلام...... ١٥٣
المبحث الثاني: الحوار الاجتماعي في قصة يوسف عليه السلام.....١٦٥
المبحث الثالث الحوار الاجتماعي في ولادة موسى عليه السلام ١٧٧
المبحث الرابع الحوار الاجتماعي في ولادة مريم وولادة عيسى
عليهما السلام.. ١٩١

الفصل الرابع: الحوار السياسي/ تمهيد.................................٢٠٩
المبحث الأول: الحوار السياسي في قصة يوسف عليه السلام ٢١٥
المبحث الثاني: الحوار السياسي في قصة موسى عليه السلام........ ٢٣١
المبحث الثالث: الحوار السياسي في قصة سليمان عليه السلام..... ٢٥١
المبحث الرابع: الحوار السياسي في قصة ذي القرنين ٢٦٧

الخاتمـــــة:.. ٢٨٣
المصـادر: ٢٨٧
المراجـع:.. ٢٩٤
فهرس المحتويات:.. ٣٠٣

